إتحاف المطالع

بفوائد

البدر الطالع

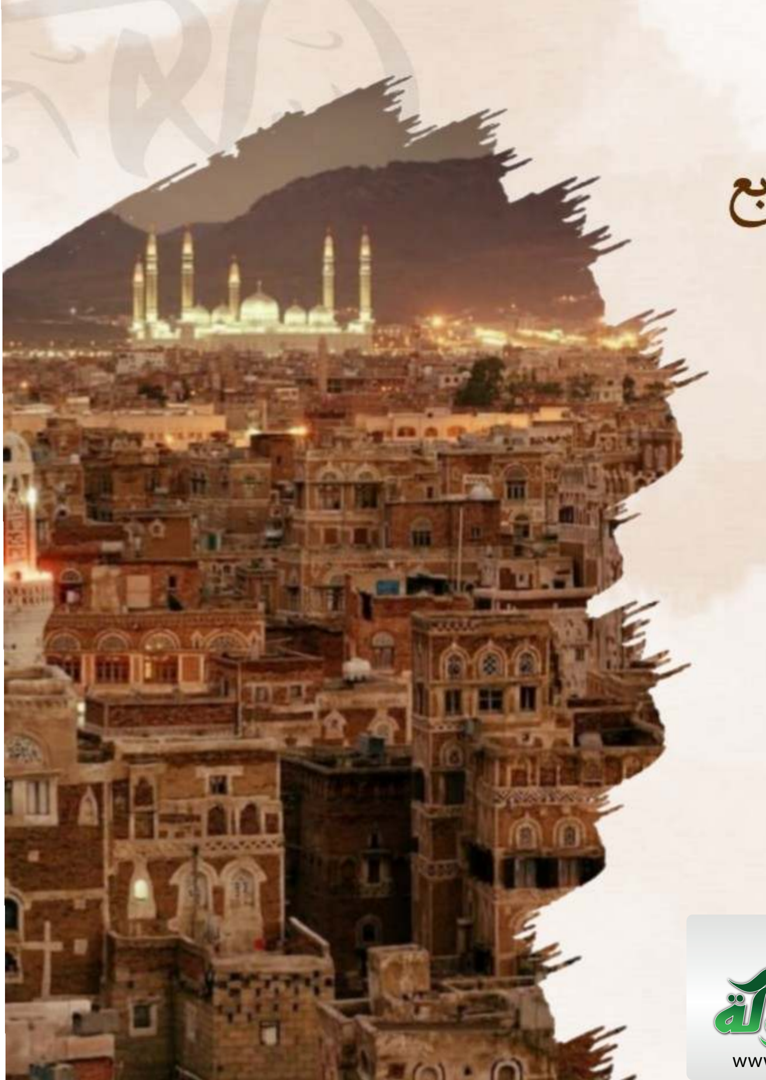
الفَوائدُ المُنتخَبَةُ مِن

البَدرِ الطَّالِعِ بِمحَاسِنِ مَن بَعد القَرنِ السَّابع

لِشَيخِ الإِسلَام مُحمَّد بن عَلي الشَّوكَانِي

(١١٧٣-١٢٥٠)

رحمه الله تعالى



انتخبها

أَحمَدُ بنُ غَانم الأَسَديُّ





بفوائد

البدر الطالع

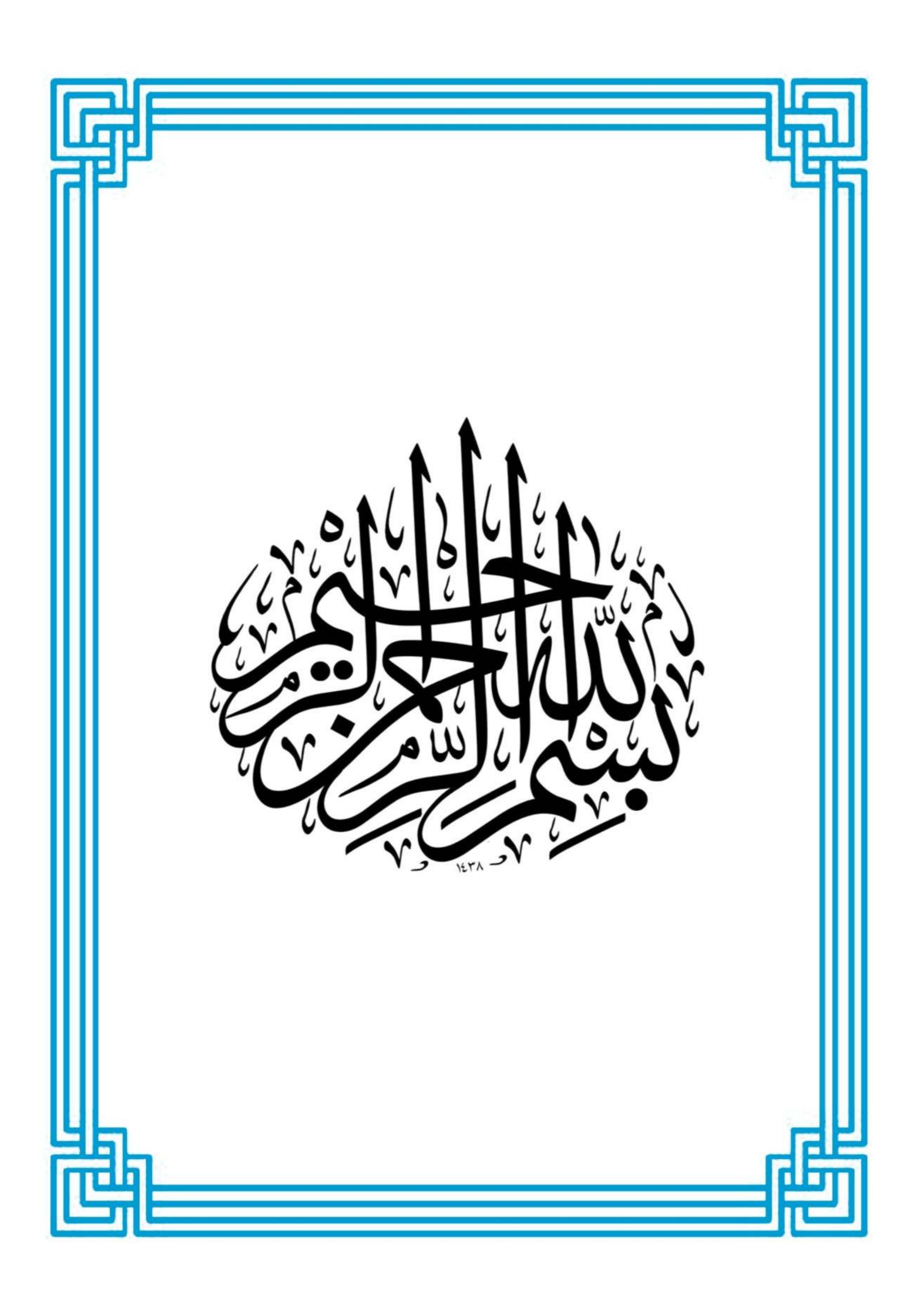
الفوائد المنتخبة من
البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع
لشيخ الإسلام محمد بن علي الشوكاني

(١١٧٣-١٢٥٠)
رحمه الله تعالى

انتخبها

أحمد بن غانم الأسدي




بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٣٨

خطبة المؤلف

الحَمدُ للهِ حمدًا يَلِيق بجلاله، ويَستمطرُ من عطاياه غيثَ نواله، والصلاةُ والسلام علىٰ سيدِ رسله وخاتمِ أنبيائه، وعلىٰ صحبه وآله، صلاةً وسلامًا مزيدين دائمين إلىٰ يوم الحشر تحتَ لوائه.

أَمَّا بعد: فهذه فوائد منتخبةٌ، وفرائد منتقاةٌ، من كتاب: «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع»، لشيخ الإسلام وعلم الأعلام، مفخرة بني قحطان الإمام الأجل محمد بن علي الشوكاني -نوَّر الله ضريحه، وقدَّس روحه- .

وقد كنتُ جردتُّ كُتبَ هذا الحبر قبل أكثر من عقدين من الزمان، ودوَّنتُ تلك الفوائد بالقلم، والآن عزمتُ علىٰ نشر فوائد هذا الكتاب الحافل بأصناف العلوم وألوان المعارف؛ لتكون تلك الفوائد علىٰ طرف الثمام، ولتكون داعية إلىٰ تسيير الطرف في أصل الكتاب، فلكل مطالع ذوق، ولكل قارئ فكر، وفوق كل ذي علم عليم.

وسميته: «إتحافُ المُطالِع بفوائِدِ البدرِ الطالع».

ومعالم عملي فيه هي:

الأول: وضع عناوين للفوائد، تارة من صلب الفائدة، وتارة مما يلوح للخاطر.

الثاني: الإحالة علىٰ رقم الترجمة.

الثالث: إبراز اسم المترجَم له ونسبته المشهورة، ثم إتباع الفائدة المذكورة في ترجمته.

الرابع: تقييد الكلمات المشكلة بعلامات الإعراب.

الخامس: لا أوثق ما ذكره الشوكاني من المصادر السابقة له؛ لأني لم أنْهض لتحقيق الكتاب، وإنما لجمع فوائده وإبرازها.

السادس: جمعت بعض الفوائد تحت عنوان واحد؛ لأنَّها نظائرُ في باب واحد.

السابع: انتخبت ما ظهر له حُسنه ومنفعته، وطرافته، وغرابته، ومناسبته للزمان والمكان، وقد تركت ما عسىٰ أن يكون حسنًا ونافعًا، ولُكلٍّ اختيارُه وعُذره.

الثامن: إن احتجتُ إلىٰ تعليق وضعته في الحاشية؛ ليبقىٰ الكلام في أصل الكتاب للشوكاني.

هذا، وأسأل الله تعالىٰ أن يتقبله، وأن يكتب له القبول، وأن ينفع به مؤلفه، وجامعه، وقارئه وناشره، ومن دل عليه.

وسبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم.

كتبهُ

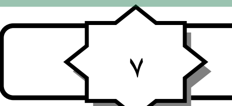
أحمدُ بنُ غانمٍ الأسديُّ

ليلةَ السبت لإحدىٰ عشرة ليلة خلتْ من شهر الله المحرم

عام خمسة وأربعين وأربع مئة وألف

من هجرة رسول الله ﷺ.

(١١/ ١/ ١٤٤٥)



لا يخلو زمان عن قائم بحُجج الله تعالى

(م/ ص٣٣): «شاع على ألسُن جماعة من الرِّعاع اختصاصُ سلف هذه الأمة بإحراز فضيلة السبق في العلوم دون خَلَفها، حتى اشتهر عن جماعة من أهل المذاهب الأربعة تعذرُ وجود مجتهد بعد المئة السادسة -كما نقل عن البعض- أو بعد المئة السابعة -كما زعمه آخرون.

وكانت هذه المقالة بمكان مِن الجهالة لا يخفى على مَن له أدنى حظ مِن علمٍ وأنزر نصيب مِن عرفان وأحقر حصة مِن فهم؛ لأنَّها قصرٌ للتفضل الإلهي والفيض الرباني على بعض العباد دون البعض، وعلى أهل عصر دون عصر، وأبناء دهر دون دهر بدون برهان ولا قرآن!

على أن هذه المقالة المخذولة **والحكاية المرذولة تستلزم خلو هذه الأعصار المتأخرة عن قائم بحجج الله ومترجم عن كتابه وسنة رسوله ﷺ** ومبين لما شرعه لعباده، وذلك هو ضياع الشريعة بلا مرية وذهاب الدين بلا شك، وهو تعالى قد تكفّل بحفظ دينه، وليس المراد حفظه في بطون الصحف والدفاتر، بل إيجاد من يبينه للناس في كل وقت وعند كل حاجة».

ما هكذا يُكتب التاريخ

(م/ ص٣٤): «وقد استكثر المتأخرون من المشتغلين بأخبار الناس المؤلفين فيها من تسجيع الألفاظ والتأنُّق في تنقيحها وتهذيبها مع إهمال بيان الأحوال والمولِد والوفاة، **ومثل ذلك لا يُعد من علم التاريخ**؛ فإن مطمح نظر مؤلفه وقُصارى مقصوده هو مراعاة الألفاظ وإبراز النِّكات البديعة، وهذا علم آخر غير



علم التاريخ إنما يرغب إليه من أراد أن يتدرب في البلاغة، ويتخرج في فن الإنشاء».

مِن نصائح الأولياء

(١): «إبراهيم بن أحمد بن علي بن أحمد الكَيْنَعي، كان قريع أوانه وفريد زمانه في الإقبال علىٰ الله والاشتغال بالعبادة...

وتناقل الناس عنه كلماتٍ نافعةٍ هي الدواء المجرب لإصلاح القلوب القاسية، كقوله: «**ليس الزاهد من يملك شيئًا، إنما الزاهد من لا يملك شيئًا**».

وكقوله -لبعض إخوانه-: «**يا أخي جدد السفينة فإن البحر عميق، وأكثر الزاد فإن الطريق بعيد، وأخلص العمل فإن الناقد بصير**».

وكقوله: «**بالفقر والافتقار والذل والانكسار تحيا قلوب العارفين**».

ومن شعره الذي تحيىٰ به القلوب قوله:

ببابـــكَ عبـــدٌ واقـــفٌ متضـــرِّعُ مقـــلٌّ فقيـــرٌ ســـائلٌ مُتَطلِّـــعُ
حـزينٌ كئيـبٌ مـن جلالـكَ مطـرِقٌ ذليـــلٌ عليـــلٌ قلبـــهُ مُتَقطِّـــعُ

ومنها:

فـؤاديَ محـزونٌ ونـوميْ مُشَـرَّدُ ودمعـيَ مسـفوحٌ وقلبـيْ مُـرَوَّعُ

وكان مُجاب الدعوة في كل ما يتوجه له، وكان إذا دُعي إلىٰ طعام ليس من الحلال الخالص يبست يده ولم يقدر علىٰ مدها إليه.

توفي سنة (٧٩٣)، ووهِمَ الصَّفَدي في كتابه «الوافي بوفيات الأعيان» فقال: إنه توفي في سنة (٧٨٤)».

«مَنْ برَّك فقد أوثقك! ومَنْ جَفَاك فقد أَطْلَقك!»[١].

(٤): «ومن شعر العلامة إبراهيم بن أحمد الباعُوني الدمشقي:

إذا استغنىٰ الصديقُ وصار ذا وصلٍ وذا قطْعِ
ولم يُبدِ احتفالًا بي ولم يحرصْ علىٰ نفْعي
فأنأىٰ عنهُ وأستغني بجاه الصبرِ والقنْعِ
وأحسبُ أنهُ ما مرَّ في الدنيا علىٰ سمعي

مِن أعلام اليمن العُزَّاب

(٧): «إبراهيم بن خالد بن أحمد بن قاسم العُلْفي ثم الصنعاني...

وهو ممن يضرب بزهده المثل، ومات ولم يتزوج».

يَستشفع بمصحفٍ لدرء عقوبة السلطان!

(٩): «الشيخ إبراهيم بن صالح الهنْدي الصنعاني الشاعر المشهور، كان أشعر أهل عصره غير مُدافَع...

---

(١) العنوان من كلام الإمام الشافعي رحمه الله، ينظر: «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١٩٧)، «تهذيب الأسماء واللغات» (١/ ٥٦)، وذكره الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٤٤٠)، وغيره عن محمد بن علي الحكيم الترمذي.

ولما صارت الخلافة إلىٰ المهدي صاحب «المواهب» وفد إليه صاحب الترجمة، وقد كان بلغه عنه شيء، **فقال له: بأيِّ شفيع جئتَ؟ فقال له: بِهذا! وأخرج المصحف من صدره!**

فقال: قد قبلنا هذا الشفيع، ولكن لا أراك بعد اليوم، فتغيب عنه من ذلك اليوم ولازم العبادة والتزهد، وكان إذا قام إلىٰ الصلاة اصفرَّ لونه».

كلام الأقران يُطوى ولا يُروى

(١٢): «إبراهيم بن عمر بن حسن البِقاعي، نزيل القاهرة ثم دمشق الإمام الكبير برهان الدين...

برع في جميع العلوم وفاق الأقران، لا كما قال السخاوي: أنه ما بلغ رتبة العلماء، بل قُصارىٰ أمره إدراجه في الفضلاء، وأنه ما عَلِمه أتقن فنًّا!

قال: وتصانيفه شاهدة بما قلته.

قلت: بل تصانيفه شاهدة بخلاف ما قاله، وأنه من الأئمة المتقنين المتبحرين في جميع المعارف، ولكن هذا من كلام الأقران في بعضهم بعضًا بما يخالف الإنصاف؛ لما يجري بينهم من المنافسات تارة علىٰ العلم وتارة علىٰ الدنيا، وقد كان المترجَم له مُنحرفًا عن السخاوي، والسخاوي مُنحرفًا عنه، **وجرىٰ بينهما من المناقضة والمراسلة والمخالفة ما يوجب عدم قبول أحدهما علىٰ الآخر**».

مِن المراجع التفسيرية عند الشوكاني

(١٢): -في ترجمة البِقاعي سالف الذكر-: «ومن أمعن النظر في كتاب المترجَم له في التفسير -الذي جعله في المناسبة بين الآي والسور- علم أنه من أوعية العلم المفرطين في الذكاء الجامعين بين علمَي المعقول والمنقول، وكثيرًا ما يُشكل علي شيء في الكتاب العزيز فأرجع إلىٰ مطولات التفاسير ومختصراتِها فلا أجد ما يَشفي، **وأرجع إلىٰ هذا الكتاب فأجد ما يُفيد في الغالب**، وقد نال منه علماء عصره بسبب تصنيف هذا الكتاب، وأنكروا عليه النقل من التوراة والإنجيل، وترسلوا عليه وأغروا به الرؤساء، ورأيت له رسالة يجيب بِها عنهم وينقل الأدلة علىٰ جواز النقل من الكتابين وفيها ما يشفي».

قُضاة الجور!

(١٢): -في ترجمة البِقاعي سالف الذكر-: «وقد امتحن الله أهل تلك الديار بقضاةٍ من المالكية **يتجرؤون علىٰ سفك الدماء بما لا يحل به أدنىٰ تعزير**، فأراقوا دماء جماعة من أهل العلم جهالة وضلالة، وجرأة علىٰ الله، ومخالفة لشريعة رسول الله ﷺ، وتلاعبًا بدينه بمجرد نصوص فقهية واستنباطات فروعية ليس عليها أثارة من علم، فإنا لله وإنا إليه راجعون!».

ابتهال بين يدي الحي القيوم!

(٢١): «أحمد بن أحمد بن عبد الواحد الأَذْرعي...

ومن نظمه:

يـــا موجـــديْ مِـــنَ العـــدَمْ	أقِـــلْ فقـــد زلَّ القَـــدَمْ
واغفـــرْ ذنوبًـــا قـــد مضـــىٰ	وقوعُهـــا مِـــن القِـــدَمْ
لا عـــــذرَ في اكتســـــابِها	إلا الخضـــــوعَ والنَّـــدمْ
إنَّ الجـــــوادَ شـــــأنُهُ	غفـــرانُ زلاتِ الخـــدَمْ

الحسد قَرِيْن التفوق!

(٢٢): «أحمد بن أحمد الآنسيُّ القهدة اليماني، المعروف بالزنمة، الشاعر المشهور...

لحق بمكة ومدح أميرها الشريف أحمد بن غالب فأحسن الشريف نُزُلَه، واجتمع هنالك بجماعة من أدباء العصر من مكة ومصر والهند والشام ومنهم حفيد الخفاجي... فاجتمعوا في منزل الشّريف، فقال الخَفاجي: ها نحن قد اجتمعنا هذا الاجتماع وهؤلاء أدباء اليمن المشهورون وأدباء الهند والشام ومصر فهلموا فلينظمْ كل واحد منا قصيدة نبوية هذه الليلة، ومن أحرز قصبات السبق حكمتُ بانحياز الأدب إلىٰ قطره، فنظم كل واحد منهم قصيدة ونظم صاحب الترجمة قصيدته المشهورة:

ألا حيِّ ذاكَ الحيَّ من ساكني صَنْعا	فكم أحسنوا بالنـازلينَ بِهـمْ صُـنْعا

فحكم الخَفاجي له بالسبق؛ فحسدوه وتعصبوا، ففارق مكة وعاد إلىٰ اليمن».

وعند الله كل خير!

(٢٤): «أحمد بن إسماعيل بن عثمان بن أحمد بن رشيد بن إبراهيم شرف الدين التَّبريزي الكُوراني القاهري ثم الرُّومي الشافعي، عالم بلاد الروم...

ولم يلبث أن وقع بينه وبين حميد الدين النُّعماني -المنسوب إلىٰ أبي حنيفة والمحكي أنه من ذريته- مباحث تَسطَّىٰ فيها عليه وتشاتما بحيث تعدَّىٰ هذا إلىٰ آبائه، ووصل علمُ ذلك إلىٰ السلطان فأمر بالقبض عليه وسجَنهُ بالبرج، ثم ادعىٰ عليه عند قاضي الحنفية ابن الدَّيري، وأقيمت البينة بالشتم وبكون المشتوم من ذرية الإمام أبي حنيفة، وعزِّر بحضرة السلطان نحو ثمانين ضربة وأمر بنفيه وأخرج عن تدريس الفقه بالبرقوقية، فاستقر فيه الجلال المحلي.اهـ

قلت: وقد لطف الله بالمترجَم له بمرافعته إلىٰ حاكم حنفي، فلو روفع إلىٰ مالكي لحكم بضرب عنقه، وقبّح الله هذه المجازفات والاستحلال للدماء والأعراض بمجرد أشياء لم يوجب الله فيها إراقة دم ولا هتك عرض؛ فإن ضرْب هذا العالم الكبير نحو ثمانين جلدة ونفيه وتمزيق عرضه والوضع من شأنه بمجرد كونه شاتم من شاتمه.. ظلمٌ بينٌ وعسفٌ ظاهرٌ، ولا سيما إذا كان لا يدري بانتساب من ذُكر إلىٰ ذلك الإمام، **لا جرم قد أبدله الله بسلطان خير من سلطانه وجيران أفضل من جيرانه ورزق أوسع مِمَّا مَنعوه منه وجاه أرفع مما حسدوه عليه،** فإنه لما خرج توجه إلىٰ مملكة الروم وما زال يترقّىٰ بِها حتىٰ استقر في قضاء العسكر وغيره، وتحول حنفيًّا وعظم اختصاصه بمَلِك الروم ومدحهُ وغيرَه بقصائد طنانة، وحسنت حاله هنالك جدًّا بحيث لم يصر عند السلطان محمد مراد



أحظىٰ منه، وانتقل من قضاء العسكر إلىٰ منصب الفتوىٰ، وتردد إليه الأكابر وشرح «جمع الجوامع» وكثر تعقّبه للمحلي، وعمل تفسيرًا وشرحًا علىٰ «البخاري»، وقصيدة في علم العروض نحو ست مئة بيت، وأنشأ باسطنبول جامعًا ومدرسة سماها «دار الحديث»، وانثالت عليه الدنيا، وعمر الدور، وانتشر علمه فأخذ عليه الأكابر، وحج في سنة (٨٦١) إحدىٰ وستين وثمان مئة، ولم يزل علىٰ جلالته حتىٰ مات في أواخر سنة (٨٩٣).

وقد ترجمه صاحب «الشقائق النعمانية» ترجمةً حافلةً، وذكر فيها أن سلطان الروم السلطان محمد عرض عليه الوزارة فلم يقبلها، وأنه أتاه مرة مرسوم من السلطان فيه مخالفة للوجه الشرعي فمزّقه، وأنه كان يخاطب السلطان باسمه ولا ينحني له ولا يقبل يده بل يصافحه مصافحة، وأنه كان لا يأتي إلىٰ السلطان إلا إذا أرسل إليه، وكان يقول له مطعمك حرام وملبسك حرام فعليك بالاحتياط، وذكر له مناقب جمة تدل علىٰ أنه من العلماء العاملين، لا كما قال السخاوي».

مِن حق لئيم الطبع أن لا تعاديه!

(٣١): «أحمد بن الحسين الرُّقَيحي، نسبة إلىٰ الرُّقَيح -بضم الراء وفتح القاف وسكون المثناة التحتية بعدها مهملة- وهو بلدة من أعمال يحصب، ثم الصنعاني الأديب صاحب المقطعات الفائقة الرائقة، وكان يتعيش بالصباغة فلا تزال كفه سوداء كأكُفِّ الصباغين، فعُوتب علىٰ ذلك، فقال:

المجدُ في العلمِ والكفُّ المسَوَّدُ مِنْ ... فنِّ الصباغةِ لا في صُحبةِ الدولِ

فما سعيتُ إلىٰ هذا وذاكَ معًا ... إلا لأجمعَ بين العلمِ والعملِ

ومن مقطعاته:

قـد بلغـتَ الكمـالَ في كـل معنًـى ... ثـم ترجـو أن تسْـلمَ الحُسّـادا
أنـتَ أمرضـتَهمْ فـدعْهمْ فمِـن حَـ ... ـقِّ لئـيمِ الطبـاعِ أن لا يُعـادا

الراحة في ترك الطمع!

(٣١): «ومن شعر الرُّقيحي:

هــذه الأطمــاعُ رجــسٌ وبِهـا ... سَـلْ إذا مـا شـئتَ أربـابَ الـوَرعْ
فاصـرفِ الراحـةَ عـنْ إمسـاكِها ... إنمـا الراحـةُ في تـركِ الطَّمـعْ

ارحل عن أرض الهوان!

(٣٣) «أحمد بن الحسين بن محمد بن الحسين المعروف بابن العليف... وله نظم مقبول ومنه هذه القصيدة الطنانة:

خُـذْ جَانـب الْعَليـا ودعْ مَـا يَنْـزلُ ... فِرضـىٰ الْبَرِيَّـةِ غَايَـةٌ لَا تُـدْركُ
وَاجعَـلْ سَـبِيلَ الـذُّلِّ عَنْـكَ بمعَـزِلٍ ... فـالعزُّ أحسـنُ مَـا بِـهِ يُتَمَسَّـكُ
وامـنحْ مودتـكَ الْكِـرَامَ فَرُبمَـا ... عـزَّ الْكَـرِيمُ وَفَـاتَ مَـا يُسْـتَدرَكُ
وَإِذا نَبـا بـكَ منـزلٌ فانبـذْ بِـهِ ... ودع المطيَّـةَ تُسـتَقلُ وتَبْـركُ
وارغـبْ بِنَفْسِـك أنْ تُـرىٰ في سـاحةٍ ... يشـقىٰ بِهَـا الْحـرُّ الْكَـرِيمُ المرْمـكُ
وارحـلْ عَـن الأوطـانِ لَا مُسـتعظِمًا ... خطَـرًا وَلَـو عـزَّ المـدىٰ والمسْـلَكُ
فـالحرُّ يُنكـرُ ضـدَّ مَـا يعتـادهُ ... ويُمـيطُ ثـوبَ الـذُّلِّ عَنـهُ ويَبْتـكُ
وَإِذا تغشّـاهُ الهـوانُ ببلـدةٍ ... يَـأْبَىٰ الْأَذىٰ أَو سِـيمَ خسـفًا يَفْتـكُ

دعها سماوية!

(٣٤): «أحمد بن رجب بن طَنْبُغا المجد بن الشهاب القاهري الشافعي، ويعرف بابن المَجْدي نسبة لجده...

ومما حُكي عنه أنه صعد القلعة للاجتماع بالملك الأشرف في قضية ضاق بِها صدره فما تيسر، ورجع وقد تزايد كربه، فاتفق أنه دخل مدرسة قريبة من القلعة فتوضأ وصلىٰ ركعتين ورفع رأسه فوجد بجانب محرابِها مكتوبًا:

دعها سماويةً تجري علىٰ قدرٍ لا تعترضها بأمرٍ منكَ تنْفسدُ

فاستبشر بذلك وآلىٰ إن قُضيَ أمره أن ينظمه في أبيات، فلم يشعر إلا وقد جاء قاصد السلطان يطلبه وحصل الغرض، فقال:

فقلتُ للقلبِ لما ضاقَ مُضطربًا وخانني الصبرُ والتفريطُ والجلدُ
دعها سماويةً تجري علىٰ قدرٍ لا تعترضْها بأمرٍ منكَ تنْفسدُ
فحُفَّني بخفي اللطفِ خالقنَا نعمَ الوكيلُ ونعمَ العونُ والمددُ

وما زال مستمرًّا علىٰ حاله الجميل حتىٰ مات».

زامر الحي لا يطرب!

(٣٦): «أحمد بن صالح بن أبي الرجال...

صاحب «مطلع البدور ومجمع البحور»، ترجم فيه لأعيان الزيدية فجاء كتابًا حافلًا، ولولا كمال عنايته واتساع اطلاعه لما تيسر له جمع ذلك الكتاب؛ لأن الزيدية مع كثرة فضلائهم ووجود أعيان منهم في كل مكرمة علىٰ تعاقب الأعصار **لهم عناية كاملة ورغبة وافرة في دفن محاسن أكابرهم وطمس آثار مفاخرهم، فلا**

يرفعون إلىٰ ما يصدر عن أعيانهم من نظم أو نثر أو تصنيف رأسًا، وهذا مع توفر رغباتهم إلىٰ الاطلاع علىٰ ما يصدر من غيرهم، والاشتغال الكامل بمعرفة أحوال سائر الطوائف والإكباب علىٰ كتبهم التاريخية وغيرها، وإني لأكثر التعجب من اختصاص المذكورين بِهذه الخصلة التي كانت سببًا لدفن سابقهم ولاحقهم وغمط رفيع قدر عالمهم وفاضلهم وشاعرهم وسائر أكابرهم، ولهذا أهملهم المصنفون في التاريخ علىٰ العموم، كمن يترجم لأهل قرن من القرون أو عصر من العصور، وإن ذكروا النادر منهم ترجموه ترجمة مغسولة عن الفائدة عاطلة عن بعض ما يستحقه، ليس فيها ذكر مولد ولا وفاة ولا شيوخ ولا مسموعات ولا مقروءات ولا أشعار ولا أخبار؛ لأن الذين ينقلون أحوال الشخص إلىٰ غيره هم معارفه وأهل بلده فإذا أهملوه أهمله غيرهم وجهلوا أمره، ومن هذه الحيثية تجدني في هذا الكتاب إذا ترجمت أحدًا منهم لم أدرِ ما أقول؛ لأن أهل عصره أهملوه فلم يبق لدىٰ من بعدهم إلا مجرد أنه فلان بن فلان، لا يدري متىٰ ولد ولا في أي وقت مات وما صنع في حياته، فمن عرف ما ذكرناه علم أن المترجَم له – رحمه الله– قد أجاد في ذلك الكتاب في كثير من التراجم».

لا يتخلف عن التدريس حتى في أيام المطر!

(٣٩): «أحمد بن عامر الحَدائي ثم الصنعاني...

وكان مواظبًا علىٰ التدريس لا يمنعه منه مانع، فإنه يقع المطر العظيم الذي يمنع من خروج من هو في سِنِّ الشباب **فلا يكون ذلك عذرًا لدىٰ صاحب الترجمة؛** لرغبته في الخير وحرصه علىٰ إفادة الطلبة، ولقد استمر انصباب المطر في بعض



السنين من قبل الفجر إلىٰ قريب وقت الظهر وكان معنا درس عليه وقت الشروق فما تركتُ الذهاب إلىٰ الجامع؛ لعلمي بأن مثل ذلك لا يمنعه مع علو سنه، فانتظرتُ له في المكان المعد للدرس فلم يأت هو ولا أحد من الطلبة وهم كثيرون، فجاء اليوم الثاني وقال لي: هل أتيتَ إلىٰ هنا؟ قلتُ: نعم، قال: لو علمتُ أنك أتيتَ ما اختلفتُ، **ثم تأسف كثيرًا علىٰ فوت الدرس**».

بَين ابن تيمية وابن حزم!

(٤٠): -في ترجمة ابن تيمية-: «لا أعلم بعد ابن حزم مثل ابن تيمية، وما أظنه سمح الزمان ما بين عصر الرجلين بمن شابَههما أو يقاربُهما».

بين مُحبٍّ غَالٍ ومُبغضٍ قالٍ

(٤٠): -في ترجمة ابن تيمية-: «والناس قسمان في شأنه: فبعضٌ منهم مقصِّرٌ به عن المقدار الذي يستحقه بل يرميه بالعظائم، وبعضٌ آخر يبالغ في وصفه ويجاوز به الحد ويتعصب له كما يتعصب أهل القسم الأول عليه».

قاعدة مطردة في كل عالم حُرُّ الفِكر!

(٤٠): -في ترجمة ابن تيمية-: «وقع له مع أهل عصره قلاقل وزلازل وامتُحن مرة بعد أخرىٰ في حياته وجرت فتن عديدة، والناس قسمان في شأنه: فبعضٌ منهم مقصّرٌ به عن المقدار الذي يستحقه بل يرميه بالعظائم، وبعضٌ آخر يبالغ في وصفه ويجاوز به الحد ويتعصب له كما يتعصب أهل القسم الأول عليه، **وهذه قاعدة مطردة في كل عالم يتبحر في المعارف العلمية ويفوق أهل عصره ويدين بالكتاب والسنة**؛ فإنه لا بد أن يستنكره المقصِّرون ويقع له معهم محنة بعد محنة ثم يكون

أمره الأعلىٰ وقوله الأولىٰ، ويصير له بتلك الزلازل لسان صدق في الآخرين ويكون لعلمه حظ لا يكون لغيره، وهكذا حال هذا الإمام؛ فإنه بعد موته عرف الناس مقداره واتفقت الألسن بالثناء عليه إلا من لا يعتد به، وطارت مصنفاته واشتهرت مقالاته».

من مواطن الصمت الرشيدة!

(٤٠): -في ترجمة ابن تيمية-: «ثم توجه القاضي ابن صصري وابن تيمية صحبةَ البريد إلىٰ القاهرة ومعهما جماعة، فوصلا في العشر الأخيرة من رمضان وعقد مجلس في ثاني عشرينه بعد صلاة الجمعة فادَّعىٰ علىٰ ابن تيمية عند المالكي، فقال: هذا عدوي ولم يجب عن الدعوىٰ، فكرر عليه فأصرَّ، فحكم المالكي بحبسه، فأُقيم من المجلس وحُبس في برج، ثم بلغ المالكي أن الناس يترددون إليه، فقال: يجب التضييق عليه إن لم يُقتل وإلا فقد ثبتَ كفرُه، فنقلوه ليلة عيد الفطر إلىٰ الجُبّ، **ولقد أحسن المترجَم له -رحمه الله- بالتصميم علىٰ عدم الإجابة** عند ذلك القاضي الجريء الجاهل الغبي، ولو وقعت منه الإجابة لم يبعد الحكم بإراقة **دم هذا الإمام الذي سمح الزمان به وهو بمثله بخيل**، ولا سيما هذا القاضي من المالكية الذي يقال له: ابن مَخْلوف، فإنه من شياطينهم المتجرئين علىٰ سفك دماء المسلمين بمجرد أكاذيب وكلمات ليس المراد بِها ما يحملونها عليه، وناهيك بقوله أن هذا الإمام قد استحق القتل وثبت لديه كفره، ولا يساوي شعرة من شعراته بل لا يصلح لأن يكون شسعًا لنعله، وما زال هذا



القاضي الشيطان يتطلب الفرص التي يتوصل بِها إلىٰ إراقة دم هذا الإمام، فحجبه الله عنه وحال بينه وبينه، والحمد لله رب العالمين».

لكل سائل جواب!

(٤٠): وحكىٰ بعضهم عن ابن تيمية أنه قال: «من سألني مستفيدًا حققتُ له، ومن سألني متعنتًا ناقضته فلا يلبث أن ينْقطع فأُكفىٰ مؤنته».

المقاتل لا يُغيِّر عقيدته ولكن يغير موقعه!

(٤٠): -في ترجمة ابن تيمية-: «وكان ابن تيمية إذا حُوقق وأُلزم يقول: لم أردْ هذا، وإنما أردتُ كذا، فيذكر احتمالًا بعيدًا! ولعل ذلك -والله أعلم- أنه يصرح بالحق فتأباه الأذهان وتنبوا عنه الطبائع؛ لقصور الأفهام، فيحوله إلىٰ احتمال آخر دفعًا للفتنة، وهكذا **ينبغي للعالم الكامل أن يفعل؛ يقول الحق كما يجب عليه، ثم يدفع المفسدة بما يمكنه**».

الهدوء بريد النبوغ والتفرد!

(٤٠): -في ترجمة ابن تيمية-: «والظاهر أن ابن تيمية لو سلم مما عَرض له من المحن المستغرقة لأكثر أيامه المكدرة لذهنه، المشوشة لفهمه لكان له من المؤلفات والاجتهادات ما لم يكن لغيره».

إني لأغلقُ عليّ بابي، فما يجاوزه همّي!

(٤٠): -في ترجمة ابن تيمية-: «وكان ابن تيمية كثيرًا ما ينشد:

تمــــوتُ النفــــوسُ بأوصـــــابِها ... ولـــم يـــدرِ عُوَّادُهـــا مـــا بِهـــا



ومـــا أنصــفتْ مهجـــةٌ تشـــتكي أذاهــــا إلـــىٰ غيـــرِ أربابِهـــا

يَفرح بتفوق ولده عليه!

(٤١): -في ترجمة العلامة أحمد ابن الحافظ العراقي-: «ودرَّس وهو شابٌّ في حياة أبيه، وقال أبوه في دروسه:

دروسُ أحمدَ خيرٌ مـنْ دروسِ أَبِـهْ وذاكَ عنــدَ أبيـــهِ منتهـــىٰ أرَبِـــهْ

(٤٧): -في ترجمة العلامة أحمد ابن تقي الدين السُّبْكي-: «وقال والده الشيخ تقي الدين لما درّس ولده هذا:

دروسُ أحمدَ خيرٌ منْ دروسِ عليْ وذاكَ عنــدَ علــيٍّ غايــةَ الأمــل

الشيخ يناكد تلميذه!

(٤١): -في ترجمة أحمد ابن الحافظ العراقي-: «ولما توجه والده لقضاء المدينة وخطابتها قام بجميع وظائفه إلا مشيخة دار الحديث؛ فإنه **انتزعها منه شيخه ابن الملقن**، فتحرك لمعارضته، ثم سكَّنه بعض مشايخه فسكَن!».

لبس رفيع الثياب قوة للحق!

(٤١): -في ترجمة الحافظ أحمد ابن العلامة العراقي-: «وقام عليه جماعته حتىٰ ألزموه بتفضيل الرفيع من الثياب، **وقرروا له أن في ذلك قوة في الشرع وتعظيمًا للقائم به**، وإلا فلم يكن عزمُه التحول عن جنس لباسه من قبل».



التلميذ العاق!

(٤١): -في ترجمة الحافظ أحمد ابن العلامة العراقي-: «ولما صُرف من القضاء حصل له سوء مزاج؛ من كونه صُرِفَ ببعض تلامذته، بل ببعض من لا يفهم عنه كما ينبغي، فكان يقول: **لو عُزلت بغير فلان ما صعُب عليَّ**».

خُلقٌ نادر مع خَفيف ماكر!

(٤٣): «أحمد بن عبد الرحمن الشامي...

ومن حُسنِ أخلاقه وقوة اصطباره واحتماله أنه سمَّهُ رجل ظن أنه غيّرَ عليه بعض أمور دنياه، فاستمر الإسهال معه مقدار سنة، ولم يحدِّث بذلك أحدًا، **وكافأ الذي سمَّه بإيصاله إلىٰ مطلبه والقيام في قضاء غرضه**، فلله درُّ هذه الأخلاق الشريفة!».

العزلة الرشيدة!

(٤٤): -في ترجمة العلامة أحمد بن عبد الله الضَّمدي-: «وهو الآن مستمر علىٰ حاله الجميل في نشر العلم والفتوىٰ والزهد **والاشتغال بخاصة النفس**».

(٥٥): -في ترجمة العلامة أحمد بن محمد بن أحمد بن جار الله مشْحَم الصعدي ثم الصنعاني-:«وهو مستمر علىٰ حاله الجميل **مقبل علىٰ شأنه**».

(٦٩): -في ترجمة العلامة أحمد بن محمد قاطن- :«وله أولاد أعلمهم عبد الحميد بن أحمد، وله عرفان كامل في علوم الاجتهاد، مع سمت ووفور عقل وجودة فهم وقوة إدراك، وهو علىٰ طريقة والده في العمل بالأدلة... وهو الآن مُكبٌّ علىٰ طلب العلوم مشتغل بالنظر في أمر معاشه ومعاده **مقبل علىٰ شأنه، قد شغلته نفسه عن غيره**».

(٨٨): -في ترجمة إسماعيل بن أحمد الكبسي الملقب مُغَلِّس-: «وهو كثير الطاعة، قليل الفضول، **كثير الإقبال علىٰ شأنه**، صليب الديانة، تعتريه حِدَّة لا سيَّما إذا شاهد شيئًا من المنكرات، كثر الله أمثاله**!**».

(١٤٥): -في ترجمة الحسين بن عبد الله الكبسي-: «أحد علماء العصر المبرزين، وهو متين الديانة، كثير العبادة، **قليل الاشتغال بما لا يعينه**، علىٰ طريقة السلف الصالح».

(٢٧٠): -في ترجمة عبد الله بن محمد بن أحمد بن جار الله مشحم الصعدي ثم الصنعاني-: «وبرع في النحو والصرف والمعاني والبيان والأصول، وشارك فيما عدا ذلك، ودرّس الطلبة بجامع صنعاء في هذه الفنون، وهو كثير الصمت، منجمع



عن الناس قليل المخالطة لهم لا يتردد إلىٰ بني الدنيا، **ولا يشتغل بما لا يعنيه**، ولا يتظهر بالعلم ولا يكاد ينطق إلا جوابًا فضلًا عن أن يُماري أو يبدي ما لديه من العلم، وبالجملة فهو قليل النظير عديم المثيل».

(٣٨٢): -في ترجمة لطف الباري بن أحمد بن عبد القادر الورد الثلائي ثم الصنعاني-: «خطيب صنعاء وأحد مشاهير علمائها، وبرع في جميع العلوم لا سيَّما علم الحديث والتفسير فإنه فيهما من المبرزين، وكان متفردًا في أمور منها: الورع الشحيح، **والاشتغال بخاصة النفس**، والإقبال علىٰ العبادة، والاستكثار من الطاعة، وحسن الخلق والتواضع والبشاش، والانجماع عن الناس إلا فيما لا بد منه، **وحفظ اللسان عن الهفوات والكبوات لاسيما بما فيه تَبِعه كالغيبة والنميمة، فإنه لا يحفظ عنه في ذلك شيء**، بل لا ينطق لسانه إلا بذكر الله والتذكير أو بإملاء تفسير كتاب الله وأحاديث رسول الله، وليس له التفات إلىٰ شيء من أحوال بني الدنيا، **ولم يكن له شغل بسوىٰ أعمال الآخرة**... وكان يبذل نفسه في قضاء حوائج من يستعين به ويبالغ في ذلك، ولم يترك طريقًا من طرق الخير إلا سلكها وفاق فيها».

(٤٥٥): -في ترجمة محمد بن عبد الرب بن محمد بن زيد-:«وهو ساكن متواضع، قانع من الدنيا باليسير، حسن الأخلاق، **قليل الخوض فيما لا يعنيه**، غير متعرِّض للمجادلة والمناظرة، والحاصل أنه في مجموعه قليل النظير».

مِن آثار التعصب الأعمى والتقليد الذميم!

(٤٦): -في ترجمة العلامة أحمد بن علي المَقْريزي-:«وتفقه حنفيًّا علىٰ مذهب جده لأمه، ثم تحول شافعيًّا، قال السخاوي: ولكن كان مائلًا إلىٰ الظاهر، وكذا قال ابن حجر: إنه أحبَّ الحديث فواظب عليه **حتىٰ كان يُتَّهم بمذهب ابن حزم**».

حُبُّ النَّسَبِ مِن موانع التجرد!

(٤٦): -في ترجمة العلامة أحمد بن علي المقريزي-:«أقام ببلده عاكفًا علىٰ الاشتغال بالتاريخ حتىٰ اشتَهر به ذكره، وبعُد فيه صيته، وصارت له فيه جملة تصانيف كـ«الخطط والآثار للقاهرة»، وهو من أحسن الكتب وأنفعها، وفيه عجائب ومواعظ، وكان فيه ينشر محاسن العبيدية ويفخِّم شأنهم ويشيد بذكر مناقبهم، وكنتُ قبل أن أعرف انتسابه إليهم أعجب من ذلك كونه علىٰ غير مذهبهم، **فلما وقفت علىٰ نسبه علمتُ أنه استروح إلىٰ ذكر مناقب سلفِه**».

انتصاف الشوكاني للمقريزي!

(٤٦): -في ترجمة العلامة المَقريزي-: «وكان متبحرًا في التاريخ علىٰ اختلاف أنواعه، ومؤلفاته تشهد له بذلك، **وإن جحده السخاوي**؛ فذلك دأبه في غالب أعيان معاصريه».



وجاءكم النذير![1].

(٤٧): -في ترجمة العلامة أحمد بن علي السُّبْكي-: «وأسرع إليه الشيب فاتقىٰ وهو في حدود العشرين».

مَن هي الفرقة الناجية؟

(٤٨): -في ترجمة الشيخ أحمد بن علي بن محسن الصنعاني-: «وأكبَّ علىٰ الاشتغال عليَّ نحو عشر سنين مع جماعة من الطلبة، ثم جرىٰ بينه وبين بعضهم ما يجري بين أمثالهم من المنافسة فانزعج، ومع كثرة تحيُّله ظن أني مؤْثر لمن نافسه عليه، فصار بعد ذلك يروي ما قد حفظه عني من اجتهاداتي الجارية علىٰ نمط الدليل التي تخالف ما عليه غالب من لا تمييز له، وكان لديه كتاب لي عارية أحسنت إليه بعاريته، فرأىٰ فيه بخطي -في مسألة الفرقة الناجية- كلامًا مضمونه:

---

(١) روي عن بعض السلف تفسير النذير في قول الله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [سورة فاطر:٣٧]. بأنه الشيب. قال ابن كثير: وهو تفسير حسن.

قلت: حُسنُه من جهتين:

الأولىٰ: من جهة السياق؛ فقد جاء بعد العمر المديد وهو سِنُّ الشيب غالبًا!

الثانية: أن تفسير الآية بالعموم مُقدَّمٌ، ما لم ترد حجة علىٰ التخصيص.

وعليه: فلا يتعارض هذا مع تفسير أكثر المفسرين للنذير بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام.والله أعلم.

أنَّهم ليسوا بعض هذه المذاهب الإسلامية علىٰ التعيين، بل **هم من تمسك بالشريعة المطهرة واهتدىٰ بِهدي المصطفىٰ ﷺ علىٰ أي مذهب كان** وفي أي عصر وُجد، ودفعتُ قول من قال أنَّهم فرقتُه، كما وقع لكثير من المتعصبين، فأقام هذا القيامة وما زال يعرضه علىٰ كل من له اشتغال بالعلم فلم يوافقه أحد علىٰ ذلك، فعاد يعرضه علىٰ المقصرين والعوام ويوهمهم بأوهام لا حقيقة لها، فكادت تثور فتنةٌ وقىٰ الله شرها، ثم طلبتُ منه إرجاع كتابي فما ساعد كلَّ هذا، وله من الفهم والعرفان نصيب تام، وهو لا يخفىٰ عليه خطأ نفسه وبطلان ما زعمه **ولم يرع حق التعليم**، وبعد ذلك ترك الاشتغال بالعلم ولم يبق عليه من رونقه شيء، ورام أن يعود للقراءة عليَّ فما ساعدته، وأرجع الكتاب المشار إليه بعد سنين، ومدحني بأبيات وأظهر الندم علىٰ ما سلف منه، عفا الله عنه!».

كثرة التصانيف مِن موانع التحرير!

(٥١): -في ترجمة الحافظ ابن حجر العسقلاني أنه قال-: «لست راضيًا عن شيء من تصانيفي؛ **لأني عملتها في ابتداء الأمر**، ثم لم يتهيأ لي من يحررها معي سوىٰ «شرح البخاري» و«مُقدمته»[١]، و«المُشتَبِه»، و«التهذيب»، و«لسان الميزان»[٢].

احتفال مشهود لفرحة إكمال تصنيف كتاب!

(٥١): -في ترجمة الحافظ ابن حجر-: «ولما كمل شرحُ البخاري تصنيفًا وقراءة عمل مصنفه ﷺ وليمة عظيمة بالمكان الذي بناه المؤيد خارج القاهرة في يوم السبت ثامن شعبان سنة (٨٤٢)، وقرأ المجلس الأخير هنالك، وجلس المصنِّف علىٰ الكرسي، قال تلميذهُ السخاوي: وكان يومًا مشهودًا؛ لم يعهد أهل العصر مثله بمحضر من العلماء والقضاة والرؤساء والفضلاء، وقال الشعراء في ذلك فأكثروا، وفرَّق عليهم الذهب، وكان المستغرق في الوليمة المذكورة نحو خمس مئة دينار[٣]، ووقعتْ في ذلك اليوم مطارحة أدبية، فمنها أن المَقام الناصري قال للمصنف: يا مولانا شيخ الإسلام هذا يوم طيب، فلعل أن تنعشونا

---

(١) المراد بالمقدمة: «هدي الساري إلىٰ شرح صحيح البخاري».

(٢) ذكر العلامة أبو الفتح ابن جني عن العلامة اللغوي المشهور أبي العباس المبرد أنه ألَّف في شبابه كتابًا في مسائل الغلط في كتاب سيبويه، فلما تقدم به السن كان يعتذر منه هذا شيء كنا رأيناه في أيام الحداثة، فأما الآن فلا». «الخصائص» (١/ ٢٠٧).

(٣) الدينار: أربعة جرامات ذهبية وربع.

فيه ببيت من مفرداتكم لعل أن نمشي خلفكم فيه، فقال المترجَم له: أخشىٰ أن ابتدأتُ أن لا يكون موافقًا لما وقع في خاطرك، والأحسن أن تبتدئ أنت، فقال الناصري:

هويتُهـــــا بيضــــاءَ رُعبوبــــةً ... قـدْ شـغفتْ قلبـيَ خَـودٌ رداحْ

فقال صاحب الترجمة:

ســـألتُها الوصـــلَ فضـــنتْ بـــهِ ... إنَّ قلـــيلًا في المـــلاح السَّـــماحْ

فقال علي الدوساني:

قـدْ جرحــتْ قلبـيَ لمــا رنــتْ ... عيونُها السّودُ المِراضُ الصِّحاحْ

فهمْهَمَ الشرف الطنوني ولم يمكنه أن يقول شيئًا، فقال صاحب الترجمة: ما للطنوني غدا حائرًا، فقال الناصري لعلي المتقدم: أجزه، فقال: وحياةِ أبيك، السلاري والفرس، فقال: هما لك من غير مهملة وتراخ، فقال:

.... وخــرَّبَ البيــتَ وخلّــىٰ وراحْ

وزير لا رغبة له في الشر!

(٥٢): -في ترجمة أحمد بن علي بن هادي النِّهمي ثم الصنعاني-:«وكان صادق اللهجة، كثير البر والإحسان، ملازمًا للطاعات والجماعات، مقبلًا علىٰ أهل العلم والفضل، كثير السعي فيما فيه صلاح المسلمين، **لا رغبة له في الشر ولا يجلبه إلىٰ أحد**».

كثرة الدنيا بريد الورطات!

(٥٦): -في ترجمة العلامة أحمد بن محمد بن أحمد بن مطهر القابلي-:«وله -عافاه الله- قدرة علىٰ حسن التعبير وجودة التصوير، مع فصاحة لسان ورجاحة عقل وجمال صورة، ووفور حظ عند جميع الخلق، لا ترد له شفاعة ولا يُكسر له جاه، وقد خُطب للأعمال الكبيرة فَقَبِلَ منها ما فيه السلامة في دينه ودنياه، وأرجع ما عداه، **واجتمع له من ذلك دنيا عريضة صانه الله بِها عن الوقوع فيما لا يشتهي من التورطات**».

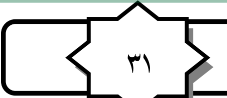
تشبيهٌ فَذٌّ للهِلال!

(٦٢): -في ترجمة أحمد بن محمد الحجازي اليَنْبُعي الأصل الصنعاني المولد والوفاة-:«الشاعر المشهور، هو من مشاهير الشعراء وله قصائد طنانة ومعاني رائقة، لو لم يكن له منها إلا ما وقع له من تشبيه الهلال الذي فاق مَن قبْله ولم يلحق به من بعده، وهو قوله من قصيدة:

ونظــرُ في الغــربِ الهــلالَ كأنّــهُ ... من العاجِ مُشطٌ غاصَ في آخرِ الفَـرْعِ

تغافل النبلاء!

(٦٤): -في ترجمة أحمد بن محمد بن سالم بن أبي المواهب الملقب نجم الدين الدمشقي-:«هجاه ابن المِرْجَل بأبيات فتحيّل حتىٰ وصلت إليه بخط الناظم، فاتفق أنه دخل عليه فغمز مملوكه فوضع الأبيات أمامه مفتوحة، فلما جلس ابن المِرْجل لمحها فعرفها، فلما تحقق القاضي أنه عَرَفها أشار برفعها ثم أحضر له قماش وصرَّة فضة، وقال له: هذه جائزة الأبيات، فأخذها ومدحه،



ودخل عليه شاعر ومعه قصيدتان في إحداهما هجو وفي الأخرىٰ مدح، وأضْمر أن يعطيه المدح فإن أرضاه وإلا أعطاه الهجو، فغلط فأعطاه الهجو فقرأه وأعطاه جائزة، وأوهم من حضر أنه مدحٌ، فلما خرج الشاعر وجد قصيدة المدح، فعاد ودفعها إليه وأظهر الاعتذار فما واخذه!».

المِنَح في بطون مِحَنِ الحُسَّاد!

(٦٧): -في ترجمة أحمد بن محمد ابن حَجَر الهيتمي-:«ثم انتقل من مصر إلىٰ مكة المشرفة؛ وسبب انتقاله أنه اختصر «الروض» للمقري وشرع في شرحه فأخذه بعض الحساد وفتته وأعدمه، فعظُم عليه الأمر واشتد حزنه، وانتقل إلىٰ مكة وصنف بِها الكتب المفيدة».

أعوذ بالله مِن قهر الرجال!

(٦٨): -في ترجمة أحمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن أبي نصر محمد ابن عرب شاه الدمشقي الأصل الرومي الحنفي، ويعرف بالعجَمي، وبابن عرَب شاه وهو الأكثر-:«وكان أحد الأفراد في إجادة النظم والنثر، ومعرفة اللغات، والمجيء بالمستظرفات، وإجادة الخط، وإتقان الضبط، وعذوبة الكلام وملاحة المحاضرة، وكثرة التودد، ومزيد التواضع، وعفة النفس، ووفور العقل، واستمر علىٰ جميل أوصافه حتىٰ مات في يوم الاثنين منتصف شهر رجب سنة (٨٥٤) أربع وخمسين وثمان مئة، وجرت له محنة من «الظاهر جقمق» شكا إليه حميد الدين فأدخله سجن أهل الجرائم، فدام فيه خمسة أيام ثم أخرج، واستمر مريضًا من القهر حتىٰ مات بعد اثني عشر يومًا».



(٥٥٠): «مسعود بن عمر التفْتازاني الإمام الكبير صاحب التصانيف المشهورة المعروف بسعد الدين...

وبالجملة فصاحب الترجمة متفرد بعلومه في القرن الثامن لم يكن له في أهله نظير فيها، وله من الحظ والشهرة والصِّيت في أهل عصره فمَن بعدهم ما لا يلحق به غيره، ومصنفاته قد طارت في حياته إلىٰ جميع البلدان وتنافس الناس في تحصيلها، ومع هذا فلم يذكره ابن حجر في «الدرر الكامنة في أهل المئة الثامنة» مع أنه يتعرض لذكره في بعض تراجم شيوخه أو تلامذته وتارة يذكر شيئًا من مصنفاته عند ترجمة من درس فيها أو طلبها، فإهمال ترجمته من العجائب المفصحة عن نقص البشر.

وكان صاحب الترجمة قد اتصل بالسلطان الكبير الطاغية الشهير تيمورلنك -المتقدم ذكره- وجرتْ بينه وبين السيد الشريف الجرجاني -المتقدم ذكره- مناظرة في مجلس السلطان المذكور في مسألةِ كون إرادة الانتقام سببًا للغضب أو الغضب سببًا لإرادة الإنتقام، فصاحب الترجمة يقول بالأول، والشريف يقول بالثاني، قال الشيخ منصور الكازروني: والحقُّ في جانب الشريف، وجرتْ بينهما أيضا المناظرة المشهورة في قوله تعالىٰ: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ [سورة البقرة:٧]، ويُقال: بأنه حكم بأن الحق في ذلك مع الشريف فاغتم صاحب الترجمة ومات كمدًا، والله أعلم».

وهذا كثير على مَن يموت!

(٦٨): -في ترجمة عرب شاه آنف الذكر-:




«ومن نظمه:

قمـيصٌ مـنَ القطـنِ مِـنْ حِلِّـهِ وشَـربةُ مـاءٍ قَـراح وقُـوتْ
ينـالُ بِهـا المـرءُ مـا يبتغـي وهـذا كثيـرٌ علـىٰ مَـنْ يمـوتْ

دنياك بَين القطع والقص!

(٦٨): ومن نظمه أيضًا:

فعـشْ مـا شـئتَ في الـدنيا وأدركْ بِهـا مـا شئتَ مِـنْ صِـيتٍ وصَـوْتِ
فحبـلُ العـيشِ موصـولٌ بقطـع وخـيطُ العمـرِ مقصـوصٌ بمـوتِ



وما الدهر إلا سُلَّم!

(٦٨): ومِن نظمه أيضًا:

ومــا الــدهرُ إلا ســلّمٌ فبقــدرِ مــا	يكـونُ صـعودُ المـرءِ فيـهِ هبوطُـهُ
وهيهــاتَ مــا فيــهِ نــزولٌ وإنمــا	شـروطُ الـذي يرقَـىٰ إليـه سـقوطُهُ
فمـنْ صـارَ أعلـىٰ كـانَ أوفىٰ تَهشّـمًا	وفـاءً بمـا قامـتْ عليـه شـروطُهُ

تحريش الأمراء بين العلماء!

(٧٠): -في ترجمة أحمد بن محمد بن علي بن مرْبَع بن حازم بن إبراهيم بن العباس المصري الشافعي الشيخ نجم الدين ابن الرِّفعة-:«وكان قد نُدب لمناظرة ابن تيمية، وسُئل ابن تيمية عنه بعد ذلك فقال: رأيت شيخًا يتقاطر فقه الشافعية من لحيته، هكذا ذكر ابن حجر في «الدرر».

ونَدْبُ صاحب الترجمة لمناظرة ابن تيمية لا يفعله إلا من لا يفهم ولا يدري بمقادير العلماء؛ فابن تيمية هو ذلك الإمام المتبحر في جميع المعارف علىٰ اختلاف أنواعها، وأين يقع صاحب الترجمة منه، وماذا عساه يفعل في مناظرته؟ اللهم إلا أن تكون المناظرة بينهما في فقه الشافعية فصاحب الترجمة أَهلٌ للمناظرة، وأما فيما عدا ذلك فلا يُقابِل ابن تيمية بمثله إلا من لا يفهم، **ولعل النادب له بعض أولئك الأمراء الذين كانوا يشتغلون بما لا يعنيهم من أمر العلماء**».

متعة القراءة تُنسي الألم!

(٧٠): -وفي ترجمة ابن الرِّفعة-:«وكان كثير الصدقة، مكبًا علىٰ الاشتغال، حتىٰ عرض له وجع المفاصل بحيث كان الثوب إذا لمس جسده آلمه، **ومع ذلك فلا يخلو من كتاب معه ينظر إليه**، وربما انْكب علىٰ وجهه وهو يطالع».

حِلْمٌ يُصيِّر العدو ودودًا !

(٧٧): -في ترجمة الإمام المهدي أحمد بن يحيىٰ بن المرتضىٰ-:«أنه سُجن (في قصة يطول ذكرها) وسِيق ومن معه إلىٰ صنعاء، فلما قربوا منها أحاط بِهم السفهاء يؤذونَهم بالكلام وهم في المحْمَل، فقال الفقيه سليمان: ادع عليهم، فرفع سجاف المحْمَل وسلّم عليهم، فلما رأوه كفوا عن الأذية، ودعوا الله أن ينفعهم به».

تزوَّج ووُلِدَ له وهو في العَقد الثالث عشر مِن عُمره!

(٧٩): «أحمد المَكَرّ -بفتح الميم والكاف وتشديد الراء المهملة، رجل من أهل اليمن الأسفل رأيته في سنة (١٢١٥) وقد صار في سن عالية، أخبرني أنه في مئة وأربع وعشرين سنة ونصف سنة، ومع هذا فهو صحيح العقل والحواس مستقيم القامة حسن العبارة، **ثم بعد هذه السن تزوج ووُلِدَ له**، كما أخبرني عن نفسه في سنة (١٢١٦)، وأخبرني غيره.

ورأيتُ رجلًا آخر علىٰ رأس القرن الثاني عشر يذكر أنه قد صار في مئة سنة وسبع وعشرين سنة ونصف سنة، ويذكر أنه من بني الهَبَل فصدقوه في علو سنِّه،



وهذا العمر خارج عن العادة المعروفة في هذه الأزمنة، مع كون كل واحد من الرجلين صحيح الحواس قوي البدن».

ثم ظهر برأسه قرنان كقرون المَعز!

(٧٩): «ومما يحسن ذكره هنا أن رجلًا يُقال له: حسين عامر الداغية من بلاد الحَدا بلغ في العمر إلىٰ نحو تسعين سنة، **ثم ظهر برأسه قرنانِ كقرون المَعْز فوق أُذنيه وانعطفا علىٰ أذنيه**، وشاعت الأخبار بذلك إلىٰ أن بلغتْ إلينا إلىٰ مدينة صنعاء، وكان المخبرون ثقات من أهل العلم، ثم لما بلغ الخبر خليفة العصر -حفظه الله- أرسل رسولًا يأتي به -وكان ذلك باطلاعي- فرجعتْ جوابات من شيخ ذلك المحل -وهو رجل يقال له: سعد مفتاح- أن صاحب القرون موجود لديهم بيقين ولكنه قطعهما لما تأذىٰ بِهما، ورأيتُ الجوابات ثم تواترت القضية تواترًا لم يبق فيه شك، وذلك في سنة (١٢١٥)».

وصارتْ رَجُلًا بعد أن كانت امرأة!

(٧٩): «ومن الغرائب الحادثة في هذا العام (١٢١٥) أن امرأة قد كانت قريب البلوغ فخرج لها في فرجها ذكَرٌ، وصارتْ رَجُلًا بعد أن كانت امرأة، وقد أخبرني بذلك السيد العلامة محمد بن يحيىٰ الكبسي، وقال إن فرجها كان ثقبًا صغيرًا، وأنه أمَرها بعد ظهور الذكر أن تلبس لبس الرجال فلبسته، وهي الآن كذلك».

خُلقٌ عجيب في احتمال تقصير أهله الغريب!

(٨٠): «أحمد بن يوسف بن الحسين بن الحسن ابن الإمام القاسم، المحقق العلامة المحدث البارع في علم السنة المشهور بحفظها وحفظ رجالها حتىٰ لُقب

بالحِدِّيث؛ لغلبته عليه، كان عارفًا بفنون الآلة جميعًا، وله يد طولىٰ في علم الأدب وقصائد طنّانة، وله تخريجٌ لـ«مجموع الإمام زيد بن علي» نفيسٌ يدل علىٰ طول باعه في علم الرواية، وكان مشهورًا بدَماثة الأخلاق والتواضع والاحتمال والصبر وسكون الطبع والوقار، وله في ذلك أحوال عجيبة حتىٰ **كان إذا تركه أهله من طعامه وشرابه أو شيء مما يحتاج إليه لا يطلب ذلك منهم ولا يظهر عليه غضب،** بل يحتمل كل شيء، وهذا في خواصِّ أهله الذين هم محل تبذُّل الإنسان وعدم تحفظه، فما ظنك بسائر الناس!».

زاجِرُ الشَّيْبِ قَدْ أَتاكَ نَذِيرًا![1]

(٨٠): «فمن قصائده الطنانة القصيدة التي أولها:

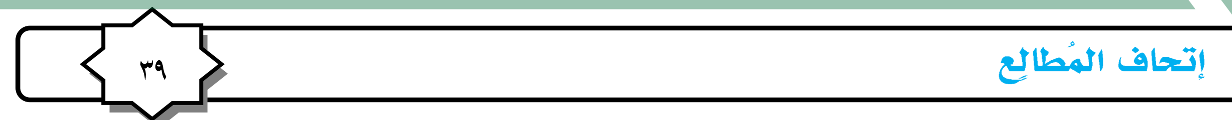
أيها القاصرُ الفِعالَ على اللهْـ ـــوِ ألما يئْنِ لكَ الإقصارُ
قدْ أتاكَ المشيبُ فيهِ من اللهِ إليكَ الإعذارُ والإنذارُ
فاتركِ اللهوَ جانبًا واحتشمهُ فهو ضيفٌ قِراهُ منكَ الوَقارُ
إنّ سكْرَ الشبابِ لمْ يبقَ منهُ بعدَ صحوِ المشيبِ إلا الخُمارُ
قدْ تولىٰ رَيعانُهُ وهو ليلٌ وأنارَ القتيرُ وهوَ نهارُ
أضلالٌ من بعد أنْ وضحَ الصبـ ـــحُ لرائيهِ فاستبانَ المنارُ
ضحكَ الشيبُ منه فابكِ خطايا كَ وأقللْ فحتفكُ الإكثارُ
ليس خمسونَ حجةً بعدها عزْ فٌ ولا صبوةٌ ولا استهتارُ
ذهب المتقون بالله بالعزِّ وذلَّ العصاةُ والذلُّ عارُ
واتبعْ في الورىٰ الذين قَفَوا أحـ ـمدَ في فعلهِ وما عنه جاروا

---

[1] قال الحافظ السقاف في «العود الهندي» (ص/ ٦٥٣، ٧٤٨) «وكانَ الواحدُ مِن السَّلَفِ إذا بَلَغَ الأربعينَ.. حَمَلَ عَصَا السفرِ، وطَوَىٰ فراشَ النومِ، وأقبلَ علىٰ عملِ الآخِرةِ، ومَن لم يَرْدعْه الشَّيبُ عن الغَوايةِ، ولم يَأخذْ بعِنانِه إلىٰ طُرُقِ الهِدايةِ فقد تُوُدِّعَ منه...

ولله دَرُّ لِسانِ الدِّينِ ابنِ الخَطيبِ في قولِه -الذي قلّما أَذْكرُه إلا وخَنَقَني النَّشيجُ، وتَبادرتْ مِن مَحْجِرَي القَطَرَاتُ- وهو:

جَـزَىٰ اللهُ عَنِّي زَاجِرَ الشَّيْبِ خَيْرَ مَا جَزَىٰ نَاصِحًا فَازَتْ يَدَاهُ بِخَيْرِهِ
سَلَكْتُ طَرِيقَ الحُبِّ حَتَّىٰ إذا انْتَهَىٰ تَعَوَّضْتُ حُبَّ اللهِ عَنْ حُبِّ غَيْرِهِ



سـلكوا نهجـهُ القـويمَ فللـ حـقِّ علـىٰ الخلـقِ عنـدهم إيثـارُ
مـا لهـمْ مـذهبٌ سـوىٰ الخـبر المرْ ويِّ عنـهُ ولا لهـم اختيـارُ

الإنصاف غُصَّة الأنصاف!

(٨٤): -في ترجمة السيد إسحاق بن يوسف بن المتوكل علىٰ الله إسماعيل بن الإمام القاسم ابن محمد-:«وله رسائل كالرسالة التي سماها «الوجه الحسَن المُذهب للحزَن»، وفيها من البلاغة وحسن المسلك ما يشهد له بالتفرد، ومضمونُها الإنكار علىٰ من عادىٰ علم السنة من الفقهاء الزيدية، وعلىٰ من عادىٰ علم الفقه من أهل السنة، **وكان يميل إلىٰ الإنصاف، ولكنه لا يُظهر ذلك لشدة الجامدين من الفقهاء علىٰ من أنصف ولم يتعصب للمذهب**».

حِلْمٌ نادر مع الزملاء!

(٨٥) :«السيد إسماعيل بن إبراهيم بن الحسين بن الحسن بن يوسف بن الإمام المهدي لدين الله محمد بن المهدي لدين الله أحمد بن الحسن ابن الإمام القاسم -رحمهم الله-، ولد سنة (١١٦٥) خمس وستين ومئة وألف بصنعاء -المحمية بالله- ونشأ بِها واشتغل بالمعارف العلمية، وهو ذو فكر صحيح، ونظر قويم رجيح، وفهم صادق، وإدراك تامّ، وكمال تصور، وعقل يقل وجود نظيره، وحسن سمت فائق، وتأدب رائق، وبشاشة أخلاق، وكرم أعراق، أخذ عني في الفقه والأصول والحديث، فقرأ عليَّ في «شرح الأزهار»، و«شرح الغاية»، و«شفاء الأمير الحسين»، و«أمالي أحمد بن عيسىٰ»، و«الأحكام» للهادي، وفي



«البخاري»، و«الهدي»، و«شرحي للمنتقىٰ»، ومؤلفي المسمىٰ بـ«الدرر»، وشرحه المسمىٰ بـ«الدراري»، وفي «الكشاف»، وغير ذلك. وهو الآن مكبٌّ علىٰ الطلب، له فيه أكمل رغبة وأتم نشاط وأعظم إقبال، وصار الآن يكتب تفسيري الذي سميته «فتح القدير»، بعد أن كتب غالب مصنفاتي وسمَّعها عليَّ، وله اشتغال بالعبادة ومحبة للاستكثار منها، **ومن حسن أخلاقه واحتماله أني لم أعرفه مع طول ملازمته لي أنه قد غضب مرة واحدة، مع كثرة ما يدور بين الطلبة من المذاكرة والمناظرة المفضية في بعض الحالات إلىٰ تكدر الأخلاق وظهور بعض القلق، وهذه منقبة عزيزة الوجود»**.

مِن عجائب الأذكياء!

(٨٩): «إسماعيل بن أبي بكر بن عبد الله بن إبراهيم بن علي بن عطية بن علي الشرف الشرْجي اليماني الشافعي المعروف بالمقرئ الزبيدي...

كتابه الذي لم يُسبق إليه المعروف بـ«عنوان الشرف»، والتزم أن يُخرج من أواخره ووسطه علومًا غير العلم الذي يخرج من جميعه وهو الفقه، ولم يتم في حياة الأشرف فقدمه لولده الناصر، ووقع عنده بل وعند سائر علماء عصره ببلده وغيرها موقعًا عظيمًا، ومن تأمله رأىٰ فيه ما يَعجز عنه غالب الطباع البشرية؛ فإنه إذا قرأه القارئ جميعًا وجده فِقْهًا، وإذا قرأ أوائل السطور فقط وأوساطها فقط وأواخرها فقط استخرج من ذلك علم النحو والتاريخ والعروض والقوافي، ومن مصنفاته «الروض» مختصر الروضة، فكان الاسم مختصرًا من اسم الأصل، و«الإرشاد»، وهو كتاب نفيس في فروع الشافعية، رشيق العبارة حلو الكلام في غاية الإيجاز مع كثرة المعاني، وشرَحَه في مجلدين وقد طار في الآفاق...

قال بعض معاصريه أنه أشعر من المتنبي، ولعله بالنسبة إلىٰ ما يأتي به في شعره من الأنواع الغريبة والأساليب العجيبة كالقصيدة التي تُقرأ حروف رويها بالضم والنصب والجر، ومن شعره ما يخرج من البيت الواحد وجوه تزيد علىٰ الألف، وكان مع إجادته في الشعر يكره أن ينتسب إليه، حتىٰ قال:

بعيـنِ الشعرِ أبصرني أناسٌ ... فلما ساءني أخرجتُ عينَهْ
خروجًا بعد راءٍ كانَ رأيي ... فصارَ الشعرُ منّي الشرعَ عينَهْ



ومن نظمه بديعيةٌ التزم في كل بيت منها تورية مع التورية باسم النوع البديعي، وله مسائل وفضائل، وعمل مرة ما يتفرع من الخلاف في مسألة الماء المشمس فبلغت آلافًا...

والحاصل أنه إمام في الفقه والعربية والمنطق والأصول، وذو يد طولىٰ في الأدب نظمًا ونثرًا، **ومتفرد بالذكاء وقوة الفهم وجودة الفكر، وله في هذا الشأن عجائب وغرائب لا يقدر عليها غيره، ولم يبلغ رتبته في الذكاء واستخراج الدقائق أحد من أبناء عصره بل ولا من غيرهم**، سمع بعض الناس يذكر بيتَي الحريري في «المقامات» الذي قال: إنه قد أمنَ أنْ يُعزوا بثالث، وهما:

سِمْ سِمةً تُحمدُ آثارُها ... فاشكرْ لمن أعطىٰ ولو سِمْسِمهْ
والمكرُ مهما اسطعتْ لا تأتهِ ... لتقتفي السؤددَ والمكرُمةْ

فقال: إن تعزيزهما بثالث غير ممتنع، فجحد ذلك البعض وطال بينهما النزاع، فرجع إلىٰ بيته وعمل علىٰ هذا النمط توفية خمسين بيتًا وأرسل بِها إلىٰ من جادله، وقال قد صارا خمسين، وأول أبياته:

مِن كلِّ مهدي دعا أحمدًا ... أُجيب ما أسعدَ مَن كلَّمهْ

وقد كان بعض المتأخرين ممن عاصره قبل عصر صاحب الترجمة قد عزز بيتي الحريري بثالث، وهو:

والمسْ لمهوىٰ الضيفِ خيرَ القِرىٰ ... وسلِّمَ المسلمَ والمسُلِمَهْ

ومع كونه بِهذه المنزلة من الذكاء كان غاية في النسيان حتىٰ قيل أنه لا يذكر ما كان في أول يومه، ومن أعجب ما يحكىٰ في نسيانه أنه نسي مرة ألف دينار، ثم وقع عليها بعد مدة اتفاقًا فتذكر ذلك، مع عدم توسعه في الدنيا بل مع مزيد حاجته إلىٰ

ماهو أقل من ذلك، وكان ينكر نِحلة ابن عربي وأتباعه، وبينه وبين متبعيه معارك وله في ذلك رسالتان وقصائد كثيرة، مات في سنة (٨٣٧) سبع وثلاثين وثمان مئة، وترجمته تحتمل كراريس»(١).

عِزَّةُ العلم ومَجدُ المعرفة!

(٩٣): «السيد إسماعيل بن علي بن حسن بن أحمد...

وقد مال إليه مولانا الإمام المنصور بالله علي بن العباس -حفظه الله- فصار يدعوه إلىٰ مقامه في كثير من الأوقات ويجالسه، وكثيرًا ما يقع الاجتماع بيني وبينه هنالك، أما في يوم الجمعة للحضور عند الخليفة -حفظه الله- للعشاء والقهوة فعلىٰ سبيل الاستمرار، ويجري بيننا هنالك من المذاكرات الأدبية والعلمية ما تُشنف الأسماعَ، وهو يورد ما يطابق المقام ويوافق مقتضىٰ الحال، ويبحث معي في كثير من المعاني الدقيقة والطرائق الرقيقة والأخبار الرشيقة، وفيه من سمو الهمة وعزة النفس ما لا يقدر عليه غيره لاسيما في مثل هذه المواطن التي يظهر فيها جواهر الرجال، فإني **لم أسمع منه علىٰ طول مدة اجتماعي به هنالك كلمة مؤذنة بالخضوع لمطلب من مطالب الدنيا لا تصريحًا ولا تلويحًا**، بل يستطرد في كلامه قصصًا ووقائع فيها مواعظ لها وقع في القلوب؛ قاصدًا بذلك التعرض للثواب الأخروي».

---

(١) قلت: يسر الله بباحث نبيه ينهض لجمع ترجمة هذا الحبر الفذ!.

أحسن التفاسير!

(٩٥): «عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البصْرَوي الأصل الدمشقي الشافعي...

وله تصانيف مفيدة منها التفسير المشهور، وهو في مجلدات، وقد جمع فيه فأوعىٰ، ونقل المذاهب والأخبار والآثار، وتكلم بأحسن كلام وأنفسه، وهو من أحسن التفاسير إن لم يكن أحسنها»(١).

نصيحة للشاب المتصدر!

(٩٩): «إسماعيل بن يحيىٰ بن حسن الصديق الصَّعْدي ثم الذماري ثم الصنعاني...

أضافني منفردًا، وقد كان اشتغل جماعة في تلك الأيام بالحط عليَّ بما يقتضيه اجتهادي في كثير من المسائل، كما هو دأب اليمن وأهله بل دأب جميع المقصرين مع من يمشي مع الدليل من العلماء، فقال لي ﵀ ما مضمونه: إن في التظهر بذلك فتنة. وذكر لي قضايا جرت مع السيد العلامة محمد ابن إسماعيل الأمير شاهَدَها وعَرَفَها، وما زال يضرب لي الأمثال بكلام رصينٍ وخطاب متينٍ، من جملته أن السيد محمد الأمير قد عرفتَ ما ناله من الناس من الأذىٰ بالقول والفعل ومع

---

(١) تأمل كيف يرقيه إلىٰ رتبة أعلىٰ التفاسير مع أن له تفسيرًا سماه: «فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير».

فسلام الله علىٰ أهل الإنصاف!



ذلك فمعه الوزير فلان والأمير فلان وفلان وفلان يقومون بنصره ويدفعون عنه ما يكره، وأنت يا ولدي قد انقبضتَ عن الناس وعكفتَ علىٰ العلم وانجمعت عن الأكابر، ثم إن السيد محمد قد كان عند مخالفته للناس في سن عالية في أواخر عمره وأنت في عنفوان الشباب فقد **لاتحتمل الناس منك ما كانوا يحتملون منه،** وأطال معي في هذا الشأن رَحِمَهُ اللَّهُ».

شَرفُ الجوار في مدينة المختار ﷺ

(١٠٢): «أيمن بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد أربعة عشر أبًا في نسق واحد، قال ابن حجر في «الدرر»: لم يوجد له نظير في ذلك إن كان ثابتًا، ولد بتونس ثم قدم القاهرة، وكان كثير الهجاء والوقيعة، ثم قدم المدينة النبوية فجاور بِها وتاب، والتزم أن يمدح النبي ﷺ خاصةً إلىٰ أن يموت، فوفّىٰ بذلك، وأراد الرحلة عن المدينة فذكر أنه رأىٰ النبي ﷺ في النوم، فقال: يا أبا البركات كيف ترضىٰ بفراقنا؟ فترك الرحيل وأقام بالمدينة إلىٰ أن مات، وسمىٰ نفسه «عاشق النبي»، وذكر أن صاحب تونس بعث إليه يطلب منه العود إلىٰ بلده ويرغبه فيه، فأجاب أني لو أُعطيت ملك المغرب والمشرق لم أرغب عن جوار رسول الله ﷺ».

لا لذة مع دعاء مظلوم!

(١١٢): «تِنْكز (نائب الشام)...



كان يقول: **أيُّ لذة لحاكم إذا كانت رعاياه يدعون عليه**».

﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾

(١١٣): «تيمورلنك بن طرغاي السلطان الأعظم الطاغية الكبرىٰ...

مات ..بسبب ثلوج تنزلت مع شدة برد، وكان لا يسافر في أيام الشتاء، **فلما أراد الله هلاكه قَويَ عزمه علىٰ هذا السفر**».

لا يكفي في القضاء اتساع العلم!

(١١٩): «جلال بن أحمد بن يوسف التَّبريزي المعروف بالتبّاني...

وكان محبًّا للحديث، حسن الاعتقاد شديدًا علىٰ الاتحادية والمبتدعة، وانتهت إليه رياسة الحنفية، وعُرض عليه القضاء غير مرة فأصر علىٰ الامتناع، وقال: هذا أمر يحتاج إلىٰ دراية ومعرفة اصطلاح، **ولا يكفي فيه مجرد الاتساع في العلم**».

مِن عجائب عالمٍ يماني في الحبشة

(١٢٣): «الحسن بن أحمد بن صلاح اليوسفي الجمالي اليماني المعروف بالحَيْمي...

ووجهه أيضًا إلىٰ سلطان الحبشة لما وصلت إليه منه كتب تتضمن رُغوبه في الإسلام، ويطلب وصول جماعة من آل الإمام إليه ليُسْلم علىٰ أيديهم، فتوجه في نحو خمسين رجلًا، وركب من بنْدر «المخا» ثم توجه من هنالك، ولاقىٰ مشاقًّا عظيمة، واستمر في الطريق سفرًا وإقامة نحو تسعة أشهر، فوصل إلىٰ سلطان الحبشة في يوم عيد للنصارىٰ، فدخل علىٰ السلطان لابسًا شعار الإسلام من

الثياب البيض، وكان السلطان غير مريد لما أظهره في كتبه من الرُّغوب في الإسلام بل مُعْظمُ قصده المراسلة كما يفعله الملوك، وأنه يريد إصلاح الطريق، فلما استقر صاحب الترجمة في مدينة السلطان أضافه وأكرم أصحابه وأراد أن يخلع عليه خلْعة حرير خالص وسوارين من الذهب، فقال له: هذا لا يحل في شريعتنا، وكان لصاحب الترجمة في تلك البلاد صولة عظيمة حتىٰ كان أصحابه يبطشون بالنصارىٰ إذا تعرضوا لهم ويضربونَهم، وشاع عند الحبشة أن العرب الذين هم أصحاب المترجَم له يأكلون الناس، فزادت مهابتهم في صدورهم وكان أعظم معين لهم علىٰ ذلك البنادق؛ فإنه لا يعرفها أهل الحبشة إذ ذاك ولولا هي ما قدروا علىٰ مرور الطريق؛ فإنَّهم كانوا ينصبُّون عليهم كالجراد فيرمونهم بالبنادق فيقتلون منهم وينهزمون ويفزعون لأصواتِها وتأثيرها، ثم لما أيس صاحب الترجمة من إسلام السلطان طالبه بالإذن له بالرجوع إلىٰ ديار الإسلام فتثاقل عنه ثم بعد حين أذن له، وكان لا يصحىٰ من شرب الخمر فعيَّن له وقتًا يصل إليه للوداع، وترك شرب الخمر في ذلك اليوم وجمع وزراءه وأمراءه وأعيان دولته، فأمر صاحب الترجمة أصحابه أن يرموا بالبنادق عند وصولهم إلىٰ باب السلطان كما يفعله أهل اليمن **ويسمون ذلك تعْشيرة**، فلما سمع السلطان أصوات البنادق هرب من إيوانه وهرب الوزراء وسائر أصحاب السلطان، فدخل صاحب الترجمة الدار ثم بعد ذلك عاد السلطان إلىٰ مكانه وأخذ في أُهبة توجيهه إلىٰ بلاد الإسلام، وكان جملة بقائه لديه ثلاث سنين ورجع إلىٰ حضرة الإمام سالمًا، وهذه الرحلة مشتملة علىٰ عجائب وغرائب قد جمعها صاحب الترجمة في كراريس هي بأيدي الناس».

عليك الخروج وليس عليك الوصول!

(١٢٣): «ومن شعره أيام إقامته بالحبشة هذه الأبيات:

علىٰ كلِّ سعي في الصلاح ثوابُ ... وكلُّ اجتهادٍ في الرشادِ صوابُ

وليس علىٰ الإنسانِ إدراكُ غايةٍ ... ودونَ مداها للعيونِ حجابُ

ولو علمَ الساعونَ غايةَ أمرِهمْ ... لَما كانَ شخصٌ بالشرورِ يُصابُ

اعتذار لطيف في أسباب أوهام العلامة الجَلَال!

(١٢٤): «الحسن بن أحمد الجلال...

وصنف التصانيف الجليلة فمنها «ضوء النهار»، جعله شرحًا لـ «الأزهار» للإمام المهدي، وحرر اجتهاداته علىٰ مقتضىٰ الدليل ولم يعبأ بمن يوافقه من العلماء أو خالفه، وهو شرح لم تشرح «الأزهار» بمثله، بل لا نظير له في الكتب المدونة في الفقه، وفيه ما هو مقبول وما هو غير مقبول، وهذا شأن البشر وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا المعصوم، **وما أظن سبب كثرة الوهم في ذلك الكتاب إلا أن هذا السيد كالبحر الزخار وذهنه كشعلةِ نارٍ فيبادر إلىٰ تحريم ما يظهر له واثقًا بكثرة علمه وسعة دائرته وقوة ذهنه**، ولا أقول كما قال السيد العلامة صلاح بن الحسين الأخفش في وصفه لبعض مصنفات صاحب الترجمة: إنه عظام لا لحم عليها، بل أقول هو بحر عُجاج متلاطم الأمواج».

هكذا فليكن الرد بأدب وسكينة!

(١٢٤): «الحسن بن أحمد الجلال...

ولي كثير من المناقشات في ترجيحاته التي يحررها في مؤلفاته، **ولكن مع اعترافي بعظيم قدره وطول باعه وتبريزه في جميع أنواع المعارف**، وكان له مع أبناء دهره قلاقل وزلازل **كما جرت به عادة أهل القطر اليمني من وضع جانب أكابر علمائهم المؤثرين لنصوص الأدلة علىٰ أقوال الرجال**».

شيخ شيوخ العصر في تواضع فريد!

(١٢٧): «الحسن بن إسماعيل بن الحسن بن محمد المَغْربي شيخ شيوخ العصر...

وكان -رحمه الله- زاهدًا ورعًا عفيفًا متواضعًا متقشفًا لا يعد نفسه في العلماء، ولا يرىٰ له حقًّا علىٰ تلامذته فضلًا عن غيرهم، ولا يتصنع في ملبوس بل يقتصر علىٰ عمامة صغيرة وقميص وسراويل وثوب يضعه علىٰ جنبيه، وتارة يجعل إزارًا مكان الثوب، ويقضي حاجته من الأسواق بنفسه ويباشر دقيقها وجليلها ويحمل علىٰ ظهره ما يحتاج إلىٰ الحمل منها، ويقود دابته ويسقيها بنفسه، **ولا يتصدر لما يتصدر له من هو معدود من صغار تلامذته من تحرير الفتاوىٰ** ومماراة أهل العلم، بل جل مقصوده الاشتغال بخاصة نفسه ونشر العلم بإلقائه إلىٰ أهله، والقيام بما لا بد منه من المعيشة، يكتفي بما يحصل له من مُسْتغلاته، التي ورثها عن سلفه الصالح مع حقارتِها، وخُطب للقضاء في أيام شبابه فلم يساعد بل صمم علىٰ الامتناع بعد أن رغّبه شيخه أحمد بن صالح -المتقدم ذكره، والحاصل أنه من

العلماء الذين إذا رأيتهم ذكرت الله ﷻ، وكل شؤونه جارية علىٰ نمط السلف الصالح، **وكان إذا سأله سائل أحاله في الجواب علىٰ أحد تلامذته**، وإذا أشكل عليه شيء في الدرس أو فيما يتعلق بالعمل **سألَ عنه غيرَ مبالٍ سواء كان المسئول عنه خفيًّا أو جليًّا؛ لأنه جُبل علىٰ التواضع**، ومع هذا ففي تلامذته القاعدين بين يديه نحو عشرة مجتهدين، والبعض منهم يصنف في أنواع العلوم إذ ذاك، **وهو لا يزداد إلا تواضعًا... واستمر علىٰ حاله الجميل لا يزداد إلا تواضعًا وتصاغرًا وتحقيرًا لنفسه، وهكذا فليصنع من أراد الوصول إلىٰ ثمرة العلم، والبلوغ إلىٰ فائدته الأخروية**».

خشية الشيخ على تليمذه مِن شواغل العلم!

(١٢٧): «الحسن بن إسماعيل المَغْربي...

وكان رحمه الله **يُقبِلُ عليَّ** إقبالًا زائدًا ويعينني علىٰ الطلب بكتبه، وهو من جملة من أرشدني إلىٰ شرح «المنتقىٰ»، وشرعتُ فيه في حياته بل شرحتُ أكثره وأتممته بعد موته، **وكان كثيرًا ما يتحدث في غيبتي أنه يخشىٰ عليَّ من عوارض العلم الموجبة للاشتغال عنه**، فما أصدق حدسَه وأوقع فِراستَه؛ فإني ابتليت بالقضاء بعد موته بدون سنة».



أتعب نفسه في إرشاد الخلق!

(١٢٩): «الحسن بن زيد بن الحسين الشامي..

قرأ بصنعاء علىٰ أعيان علمائها كالسيد العلامة هاشم بن يحيىٰ الشامي وطبقته، وبرع في علم الحديث وشارك في غيره من الفنون مشاركة قوية، ونشر العلم **وأتعب نفسه في الإرشاد إلىٰ الحق من العمل بالدليل**، وأقبل عليه الخاصُّ والعامُّ وأخذوا عنه وتخلقوا بأخلاقه ومشوا علىٰ طريقته، وكان لا يمل من ذلك في جميع الأوقات فظهرت بركته وعم النفع به؛ فإنه سكن في صنعاء فصار له أتْباع لا يعملون إلا بالأدلة، ثم سكن في (هجرة سَناع) فصار أهلها جميعًا مشتغلين بالطاعة مواظبين علىٰ الجمعة والجماعة، وكذلك سكن في (ذهبان) وصار أهله كذلك، وله في حسن التعليم طريقة لا يقدر عليها غيره، وكان مقبول الكلمة عند الإمام المهدي العباس بن الحسين وعند وزيره أحمد بن علي النهمي فنفع به جماعة من المحاويج، وصار يبذل جاهه لهم فيجلب إليهم خيرًا كثيرًا ولا يأخذ لنفسه شيئًا مع كونه فقيرًا، وكان هذا دأبه طول حياته، ولا مطمع له في مواصلة أرباب الدولة إلا ذلك، وله في الزهد والتقشف وكثرة العبادة وظائف لا يقدر عليها غيره، مع قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والترسّلات في ذلك علىٰ الإمام فمن دونه، والإرشاد إلىٰ الرفق بالرَّعية، ولقد كان خيرًا كلَّه، ولم أعرفه ولكنه أخبرني بأخباره كل من يعرفه، وما زال مستمرًّا علىٰ ذلك حتىٰ مات في سنة (١١٩٦)ست وتسعين ومئة وألف في جمادىٰ الأولىٰ منها».



نظير الوزير ابن بقية.. في اليمن!

(١٣١): «الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عبد الله بن عبد الرحمن بن حنَش...

ثم لما مات الإمام المهدي وبويع مولانا الإمام المنصور بالله أناط بصاحب الترجمة أعمالًا وصيَّره أحد وزرائه المقربين عنده، وجعل بنظره بعض البلاد اليمنية وبالغ في تعظيمه؛ لكونه شيخه في العلم، ولم يعامله معاملة سائر الوزراء، وإذا ناب الدولة أمر يتعلق بالأمور الشرعية كان التعويل عليه في الغالب، **وغالب ما يتحصل له ينفقه علىٰ العلماء ويواسي به الفضلاء والفقراء علىٰ وجه لايحب أن يطَّلع عليه أحد، وما زال هذا دأبه وديدنه من أول وزارته إلىٰ حال تحرير هذا نحو ثلاث وعشرين سنة، وهو لا يزداد إلا خيرًا وإنفاقًا علىٰ من يستحق ذلك، وهو في هذه الخصلة منقطع القرين عديم النظير لا سيما في هذا العصر؛ فإنه قد يعطي بعض المحاويج الذين لا يتصلون به عطاء يجاوز الوصف في الكثرة، ويشتري البيوت ويهبها لمن لا بيتَ له، ويعين من أراد أن يشتري بيتًا إذا كان مستحقًا لأكثر الثمن أو كلّه**، وقد صنع هذا المصنع مع أناس كثيرين وهو يكره ظهور ذلك واطلاع الناس عليه وذلك دليل الخلُوص، وأني لأكثر التعجب من كثرة صدقاته التي منها ما يبلغ المئة القِرْش وفوقها ودونَها، بل أخبرني بعض العلماء أنه اطلع علىٰ ما وهبه لبعض العلماء وكانت جملته ألف قِرْش دفعة واحدة، وأخبرني آخر أنه بلغ إعطاؤه لعالم آخر اثنتي عشرةَ مئةَ قِرْشٍ دفعة واحدة، وناهيك بِهذا؛ فإن عطاء الملوك في عصرنا يتقاصر عنه، ويزداد التعجب من استمراره علىٰ ذلك كيف

قدر علىٰ القيام به مع أن غيره ممن بنظَره أعمالٌ أكثر من أعماله ومدْخُولات أوفر من مدخولاته قد لا يقوم ما يتحصل له بما يستغرقه لخاصة نفسه وأهله فضلًا عن غير ذلك، ثم أذكر قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ﴾ [سورة سبأ:٣٩]، وقول النبي ﷺ: «**أَنْفِقْ يُنْفَقْ عَلَيْكَ**»، فأعلم عند ذلك السبب، ومع هذا فهو في عيش فائق مترفِّه في ملبوسه ومأكوله ومسكنه ومركبه وجميع أحواله علىٰ حد يقصر عنه أمثاله، قد جمع الله له من نعم الدنيا ما لا يدركه غيره وأعطاه من الكمالات ما لا يوجد مجتمعًا في سِواه، فإنه مع إحكامه لما يتعلق به من الأعمال الدولية معدود من العلماء، مذكور في الفرسان، مشهور بحسن الرِّماية، جيد الخط، قوي النثر، حسن الأخلاق، وكان بشوشًا متواضعًا سيوسًا جليًّا وقورًا ساكنًا عفيفًا، مواظبًا علىٰ الجمعة والجماعة، كثير الأذكار، محبًا للفقراء، راغبًا في الخير كافًّا لنفسه عن الشر، معظمًا للشرع، مجالسهُ مشتملة علىٰ المباحثات العلمية والمفاكهات الأدبية، مُقرِّبًا لأهل الفضل مُبعِدًا لأهل البطالة، حسن المحاضرة قوي المباحثة، جيد الفهم حسن الإدراك، ينشط إذا سُئل عن مسئلة علمية ويبحث ويستخرج بدقيق ذهنه فرائد بديعة، يعرف النحو والصرف والمعاني والبيان والأصول والقراءات والتفسير، ويعمل بجميع هذه الفنون، وله كمال الاشتغال والعناية بعلم الحديث والتفسير والعمل بما تقتضيه الأدلة، ولا يبالي بما عدا ذلك، ولديه من الكتب النفيسة ما لا يوجد عند غيره، **وبيني وبينه من خالص الوداد ما لا أقدر علىٰ التعبير عن بعضه، وما أعده إلا بمنزلة الوالد وهو ينزلني منزلة الولد ويجلني إجلال الوالد**، وقد اتفقت الألسُن علىٰ الثناء عليه ونشر

محاسنه، مع أن الناس لا يرضون عن المتعلقين بأعمال الدولة، ولكن رأوا فيه من المحاسن ما لا يمكن جحده، **والحاصل أنه للدولة جمال، ولأهل العلم جلال، وللفقراء ذخيرة أفضال، طالت أيامه ومُدت أعوامه!**».

مِن بركات ولاية الشوكاني للقضاء!

(١٤٠): «الحسن بن يحيىٰ بن أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن القاسم الحمزي الكبْسي ثم الصنْعاني...

وبرع في جميع هذه الفنون وصار من أعيان علماء العصر المشار إليهم بالتحقيق والإتقان، وهو جيد التحرير حَسَن المباحثة، وله رسائل في مسائل متفرقة متقنة غاية الإتقان... ولما مات أخوه العلامة محمد بن يحيىٰ قام هذا مقامه في القضاء بالجهات الخولانية وما يتصل بِها، وعظمه مولانا الإمام بما يليق بجلاله وقدره **بعد أن عرَّفته –حفظه الله– بأن المذكور بالمحل العالي في العلم والعمل**».

(١٤٥): «الحسين بن عبد الله الكبسي...

أحد علماء العصر المبرِّزين، وهو متين الدِّيانة كثير العبادة قليل الاشتغال بما لا يعينه علىٰ طريقة السلف الصالح، ثم رحل عن كوكبان لأمور جرت بينه وبين صاحبها، واستقر في الروضة إمامًا لجامعها، وولاه إمام العصر القضاء في الروضة **ولم يقبل إلا بعد أن كثّرتُ عليه في ذلك، وأشرت علىٰ مولانا الإمام بعدم قبول عذره.**

وفي أواخر شهر شوال سنة (١٢٢٢) أظهر المذكور هو وجماعة من الكَباسية وآل أبي طالب الخروج عن طاعة الدولة، وخرج إليهم أحمد بن عبد الله بن الإمام المهدي العباس بن المنصور، وانضم إليهم جميع أهل الروضة طوعًا وكرهًا، ووصل إليهم بعض القبائل وردُّوا أمر الدولة وطردوا العامل وراموا خلع الخليفة مولانا الإمام المنصور بالله –حفظه الله–، وكتبوا إلىٰ جميع الأقطار اليمنية، وكاد



صاحب الترجمة أن يدعو إلىٰ نفسه، وعرَض عليهم الإجابة إلىٰ كل ما يطلبونه، وخرج شيخنا القاضي العلامة أحمد بن محمد الحَرازي من الحضرة الإمامية ومعه مكاتيب في كل ما طلبوه من العدل والأمان لهم، وكانت تلك المكاتيب بخطِي، فما رجعوا بل صمموا علىٰ ما عزموا عليه، فخرج إليهم بالجيش سيفُ الخلافة سيدي أحمد بن الإمام وناجزَهم وتحصنوا في بعض سور الروضة، ثم أحاط بِهم الجيش، وأُسِر صاحب الترجمة وجماعة من الكَباسية ووصلوا بِهم إلىٰ تحت طاقة الخليفة، **وبالغتُ في الشفاعة لهم من القتل بعد أن كان قد وقع العزم عليه، وقمت بالحجة الشرعية المقتضية لحقن دمائهم فأُودعوا السجن**، وصاحب الترجمة وقع التغرير عليه والخداع له من بعض شياطين الإنس، وقد كان الاستيلاء عليهم في أول يوم من شهر الحجة من هذه السنة، ومات رحمه الله مسجونًا بعد أن بقي في السجن نحو عامين أو ثلاثة».

(١٩٤): «...ثم في صفر سنة (١٢٢٨) غزا مولانا الإمام المتوكل علىٰ الله بنفسه مع بعض جنده إلىٰ بلاد (كوكبان) لأمر اقتضىٰ ذلك، وكنت معه واستولىٰ علىٰ (كوكبان) وبلادها وبقيْنا في حصن (كوكبان) نحو ثلاثة أشهر، **وكنتُ قد نصحتُ الإمام بترك هذه الغزوة وأنه لا سبب شرعي يقتضي ذلك فصمّم ولم يقبل**، ثم رجع صنعاء وأدخل معه صاحب الترجمة وجميع أعيان آل الإمام شرف الدين ولم يبق إلا الأقل منهم في تلك الجهة، وجعل للبلاد الكوكبانية واليًا، وجعل صورة الولاية لواحد من أهل (كوكبان) وهو السيد حسين بن علي بن محمد بن علي، ولم يكن له من الأمر شيء إلا مجرد الصورة فقط، ثم استمر بقاء صاحب

الترجمة وبعض الداخلين مع الإمام في صنعاء سنة كاملة وزيادة أيام يسيرة، وأذن الإمام -حفظه الله- برجوعهم بلادَهم وفوض أمرَها إلىٰ صاحب الترجمة كما كانت قبل ذلك، وهو الآن مستمر علىٰ ولايته، وعند الاجتماع به في كثير من الأوقات لا سيما بعد دخوله صنعاء في الحضرة الإمامية وجدت فيه من الظَّرافة واللَّطافة وحسن المحاضرة وجميل المعاشرة وقوة الدين وكثرة العبادة ما يفوق الوصف، **وما زلتُ أعوِّل علىٰ مولانا الإمام -حفظه الله- بإرجاعه بلاده علىٰ ما كان عليه وكثّرتُ في ذلك حتىٰ ألهمه الله إلىٰ ذلك**، فلله الحمد، ثم في سنة (١٢٣٣) غزا البلاد الكوكبانية مولانا الإمام المهدىٰ ابن الامام المتوكل، ووقعت حروب طويلة بينه وبين سيدي شرف الدين صاحب (كوكبان)، ثم رجع الإمام بعد أن حاصر (كوكبان) ثمانية عشر يومًا، وأمرني بالبقاء في (شِبَام) لتمام الصلح، فبقيت هنالك ثم تم الصلح علىٰ يدي، ورجعت إلىٰ صنعاء ومعي سيدي عبد الله بن شرف الدين وسيدي أحمد بن عباس بن إبراهيم في أُهبة لهما كبيرة وجيش وخيل، وسكنتْ الفتنة بحمد الله».

(٢٢٥/ ز): «محمد بن علي بن الحسن العَواجي...

هو ممن ارتحل إلىٰ صنعاء لطلب العلم وأخذ عني في النحو والفقه وأجزت له إجازة عامة في جميع ما يجوز لي روايته، وهو الآن ساكن عند والده في بندر «اللُّحَية»، ولعله قد قارب الثلاثين ومات هذا ووالده قبله بعد وقوع الاضطراب في تِهامة وقيام الشريف حمود بِها، وكل واحد من هؤلاء كان يستحق أن يفرد بترجمة مستقلة، ولكن لم يكن لدي من أخبارهم إلا أشياء يسيرة، وفي سنة (١٢٤٣)



وصلت الجنود الرومية إلىٰ تِهامة وأَسَروا الشريف أحمد بن حمود القائم مقام أبيه وقتلوا عالم الأشراف وقائد جنودهم الشريف حسن بن خالد الحازمي، وأدخلوا جماعة من الأشراف إلىٰ الروم منهم أحمد بن حمود، ونكَّلوا بجماعة من المتولين لأمورهم من القضاة وغيرهم، وامتُحن صاحب الترجمة وحُبس ثم أُطلق، وهو الآن خائف يترقب ما نزل بغيره -دفع الله عنه كل مكروه- **وقد تشفعتُ له عند الباشا الواصل بالجنود الرومية وهو الباشا خليل فلم يُصَبْ بعد ذلك بما أُصيب به غيره، والمرجو من الله عزوجل أن يصرف عنه كل شر، فإنه من أكابر العلماء العاملين ومن عباد الله الصالحين،** ثم بعد هذا أجرىٰ الصلح بين سيدي المولىٰ وبين الروم علىٰ إرجاع البلاد التي اغتصبها الشريف إلىٰ الإمام، **فعرّفْتُ الإمام -حفظه الله- أن يقرِّره لقضاء بيت الفقيه كما كان، فقرَّره علىٰ ذلك وعاد كما كان، ولله الحمد»**.

مِن المفاخر الأدبية في الديار اليمنية!

(١٤٦): «الحسين بن عبد القادر الكَوْكباني...

الشاعر المشهور المُجيد المُكثر المُبدع الفائق في الأدب، ومن نظمه الفائق قوله من قصيدة:

ما أعجبَ الحبَّ يشتاقُ العميدُ إلىٰ ... ظبـي الصـريمِ وقـدْ أرداهُ بالحَـدقِ
يـا ورديَ الخـدِّ دعْ إنكـارَ قتـل فتًـىٰ ... مـا قـطُّ أبقـتْ لـهُ عينـاكَ مـنْ رَمـقِ
في خـدكَ الشـفقُ القـاني بـدا وعلـىٰ ... قتـل الحسـينِ دليـلٌ حمـرةُ الشَّـفقِ

وأعاد هذا المعنىٰ في قصيدة أخرىٰ، فقال:

في خدِّكَ الشـفقُ القـاني وفيـهِ علـىٰ ... قتل الحسـينِ كمـا قـالوا أمـاراتُ

ومن محاسن قصائده القصيدة التي مطلعها:

خففْ علىٰ ذي لوعةٍ وشُجونِ واحفظْ فؤادكَ مِنْ عيونِ العِينِ

ومن لطائفة هذان البيتان -قالهما لما قتل السيد أحمد بن محمد بن الحسين ابن القاسم الملقب بحجر -رحمه الله- وفيهما تضمين مطرب-:

وددتُ مصرعَ مولانا الصفيِّ ولا الـ رجوعَ في سلكِ قوم بعدَ ما كُسروا
وصرتُ أنشدُ مِن كربٍ ومن أسفٍ ما أطيبَ العيشَ لو أنّ الفتىٰ حجَرُ

ومن قصائده الطنانة القصيدة التي مطلعها:

لفؤاديْ في الهوىٰ كدٌّ وكدحُ ولطرفي بالدما سحٌّ وسَفْحُ

وأشعاره كلها غرر، وكلماته جميعها درر، وهو من محاسن اليمن، ومفاخر الزمن».

إذا لم يجد نفقة النقد تصدق بثيابه وفراشه!

(١٤٧): «السيد الحسين بن علي بن الإمام المتوكل علىٰ الله إسماعيل بن الإمام القاسم الرئيس الكبير الشاعر المشهور، ولد في سنة (١٠٧٢) اثنتين وسبعين وألف، وكان في أيام شبابه مائلًا إلىٰ ملاذِّ الدنيا والتمتع بمحاسنها، مُرخيًا لنفسه العِنان، غير كافٍّ لها عن التفلت في رياض محاسن الحسان، ثم تزهَّد وتعبَّد وانجمع وتمسَّح وتألَّه وأقلع عن جميع ما كان عليه، وجاد بجميع موجوده، وله في المكارم أحاديث حاتمية تلتذُّ لسماعها الأسماع، **وكان إذا لم يجد النقد تصدق بثيابه وفراشه**، ومال إلىٰ مخالطة الفقراء ولبس ملبوسهم وقعد في مقاعدهم، ومع هذا فابنه علي بن الحسين إذ ذاك رئيس كبير له خيل وخَوَل، وحاشية عظيمة،

ورياسة فخيمة، ولكن صاحب الترجمة قد حبب الله إليه الانعزال عن بني الدنيا حتىٰ عن ولده».

مِن الشعر اليماني الفائق!

(١٤٧): «ومن شعره الفائق هذان البيتان:

لا تحسبنَّ لباسَ الصُّوفِ في ملأ ... تُدعي به بين أهل الفضل بالصُّوفي
وإنّما مَن صَفا قلبًا ومالَ إلىٰ ... صِقالةِ النّفسِ مِن أوصافِها صُوفي

ومن محاسن شعره القصيدة المشهورة التي أولها:

آهٍ كمْ اطوي علىٰ الضّيمِ جناحي ... وأُداجي في الهوىٰ قالٍ ولاحِي

وله القصيدة الطويلة عارض بِها قصيدة ابن الوردي أولها:

اتركْ الدُّنيا ودعْ عنكَ الأملْ ... طالَ ما عنْ نيلِها حالَ الأجلْ

وفيها مواعظ وحكم، وما زال مُقبلًا علىٰ الطاعة عاكفًا علىٰ العبادة حتىٰ توفاه الله تعالىٰ».

شديد المحبة لله ولرسوله ﷺ

(١٥٣): «الحسين بن محمد بن عبد الله الطِّيبي، الإمام المشهور صاحب «شرح المشكاة» و«حاشية الكشاف» وغيرهما، كان في مبادئ عمره صاحب ثروة كبيرة فلم يزل ينفق ذلك في وجوه الخيرات إلىٰ أن كان في آخر عمره فقيرًا، وكان كريمًا متواضعًا، حسن المعتقد، شديد الرد علىٰ الفلاسفة والمبتدعة، مظهرًا فضائحهم مع استيلائهم علىٰ بلاد المسلمين في عصره، **شديد المحبة لله ولرسوله** ﷺ، كثير الحياء، ملازمًا للجمعة والجماعة، ملازمًا لتدريس الطلبة في العلوم الإسلامية،

وعنده كتب نفيسة يبذلها لطلبته ولغيرهم من أهل بلده بل ولسائر البلدان من يعرفه ومن لا يعرفه، وله إقبال علىٰ استخراج الدقائق من الكتاب والسنة، وحاشيته علىٰ «الكشاف» هي أنفس حواشيه علىٰ الإطلاق، مع ما فيها من الكلام علىٰ الأحاديث في بعض الحالات إذا اقتضىٰ الحال ذلك علىٰ طريقة المحدثين مما يدل علىٰ ارتفاع طبقته في علمي المعقول والمنقول».

تركُ الترجيح مِن بركات الاجتهاد!

(١٥٤): «الحسين بن محمد بن سعيد بن عيسىٰ اللّاعي المعروف بالمغْرِبي، قاضي صنعاء وعالمها ومحدثها، وهو مصنف «البدر التمام شرح بلوغ المرام»، وهو شرح حافل نقل ما في التلخيص من الكلام علىٰ متون الأحاديث وأسانيدها، ثم إذا كان الحديث في «البخاري» نقل شرحه من «فتح الباري» وإذا كان في «صحيح مسلم» نقل شرحه من «شرح النووي» وتارة ينقل من «شرح السنن» لابن رسلان، ولكنه لا ينسب هذه النقول الىٰ أهلها غالبًا مع كونه يسوقها باللفظ، وينقل الخلافات من «البحر الزخار» للإمام المهدي أحمد بن يحيىٰ، وفي بعض الأحوال من «نِهاية ابن رشد»، **ويترك التعرض للترجيح في غالب الحالات وهو ثمرة الاجتهاد**».

دار الفجائع!

(١٥٥): «الحسين بن ناصر بن عبد الحفيظ الشرفي اليماني العالم الكبير، ومن شعره:

هــيَ الــدارُ مــا الآمــالُ إلا فجــائعُ ... عليهــا ومــا اللــذاتُ إلا مصــائبُ

فكــمْ ســخنتْ بــالأمسِ عــينٌ قريــرةٌ ... وقــرتْ عيــونٌ دمعُهــا قبــلُ ســاكبُ

فــلا تكتحــلْ عينــاكَ منهــا بعَــبرةٍ ... علــىٰ ذاهــبٍ منهــا فإنــكَ ذاهــبُ

صُور مِن الصداقة بين أهل العلم!

(١٥٦): «الحسين بن يحيىٰ بن إبراهيم الديلمي الذماري، ولد في سنة (١١٤٩) تسع وأربعين ومئة وألف، ونشأ بذمار وأخذ عن علمائها كالفقيه عبد الله بن حسين دُلامة والفقيه حسن بن أحمد الشَّبيبي وهما المرجع هنالك في علم الفقه، ثم ارتحل إلىٰ صنعاء وقرأ في العربية، وله قراءة في الحديث علىٰ السيد العلامة محمد بن إسماعيل الأمير، ثم عاد إلىٰ (ذمار) واستقر بِها وكان فقيرًا فتزوج بامرأة لها ثروة، ثم اشتغل بالتجارة وتكاثرت أمواله، ولم يكن يتجر بنفسه بل كان ينوُّب عنه غيره، وهو مكبٌّ علىٰ العلم ودرس في الفقه وغيره، وتخرج به جماعة منهم شيخنا العلامة أحمد بن محمد الحرازي المتقدم ذكره، ثم رحل إلىٰ صنعاء رحلة ثانية بعد سنة (١٢٠٠)، ورافقني في القراءة علىٰ شيخنا العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي فقرأ معنا في «صحيح مسلم»، وأقرأ الطلبة في الفقه بجامع صنعاء، وبقي مدة وعزم علىٰ استيطان صنعاء ثم بعد ذلك رَجَّحَ العود إلىٰ (ذمار)، فعاد إليها وهو الآن عالمها المرجوع إليه المتفرد بِها من دون مُدافع، وصار الطلبة هنالك يقرأون عليه في الفقه والنحو والصرف والأصول والتفسير والحديث، **وبيني وبينه من المودة ما لا يُعبر عنه**، وقد جرىٰ بيننا مباحثة علمية مدونة في رسائل هي في مجموع ما لي من «الفتاوىٰ والرسائل»، ولا يزال يعاهدني بعد رجوعه إلىٰ (ذمار) ويتشوق إلىٰ اللقاء وأنا كذلك، والمكاتبة بيننا مستمرة إلىٰ الآن، وهو من جملة من رغبني في شرح «المنتقىٰ»، فلما أعان الله علىٰ تمامه صار يراسلني في الإرسال إليه بنسخة ولم يكن قد تيسر ذلك».

(١٧٧): «السيد العلامة محمد بن يحيىٰ بن أحمد بن زيد بن محمد، وهو من أعيان السادة آل الإمام، وله معرفة تامة بفنون من العلم، وقد رافقته في قراءة كتاب الله ﷻ في المكتب، وترافقنا في قراءة الفقه وبعض الآلات في أيام الصغر، ولعل مولده سنة (١١٧٠) أو قبلها بقليل أو بعدها بقليل، **وبيني وبينه مودة أكيدة ومحبة صادقة**، وله عرفان بعلم الطب وقد انتفع به الناس فيه لاسيما في هذه الأيام بعد موت السيد يحيىٰ بن محمد بن عبد الله بن الحسين بن القاسم، فإن الناس عولوا عليه وانتفعوا به، وهو الآن مستمر علىٰ حاله الجميل».

(١٨٧): «العلامة عبد الرحمن بن سليمان قام مقام أبيه في وظيفة التدريس والإفتاء مع حداثة سِنِّه، وله شُغلة كبيرة بالعلوم والعقلية والنقلية وميل إلىٰ التعبد وأفعال الخير، وهو الآن حيٌّ وفتاويه تصل إلينا، وهي فتاوىٰ متقنة ينقل في كل ما يرد عليه من السؤالات نصوص أئمة مذهبه من الشافعية، **وقد كتب إليَّ معاهدة مشتملة علىٰ نثر حسن يدل علىٰ تعلقه بالأدب**».

(١٩٥): «السيد شرَف الدين بن إسماعيل بن محمد بن إسحاق بن المهدي أحمد بن الحسن بن القاسم بن محمد، ولد سنة (١١٤٠) أربعين ومئة وألف، وهو أحد علماء العصر وفضلائه ونبلائه له في كل علم نصيب وافر، ولا سيما علم الأصول، فهو المتفرد به غير مُدافَع، وقد صار الآن في نَيِّف وسبعين سنة، وهو من العلماء العاملين والفضلاء المتورِّعين مع حُسن أخلاق وتواضع وطيب محاضرة وكرم أنفاس... **وقد أخبرني أنه نقل من رسائلي التي يطّلع عليها نحو ثلاث أو أربع، وذلك لشغفه بالعلم ومزيد رغبته فيه، وإلا فهو -عافاه الله- لا يحتاج إلىٰ**

مثل ما يحرره مثلي، وهذا يعد من حسن أخلاقه وتواضعه ومحبته للفوائد العلمية».

(٢٢٥): «عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن علىٰ البهْكَلي الضّمدي، رحل إلىٰ صنعاء سنة (١٢٠٢) فأخذ عن أكابر علمائها، وأخذ عني في فنون متعددة واختص بي اختصاصًا كاملًا، وسألني مسائل كثيرة فأجبت عليه بأجوبة مطولة ومختصرة، وعاد إلىٰ وطنه وقد برع في النحو والصرف والمنطق والمعاني والبيان والأصول والتفسير والحديث في أقرب مدة؛ لحسن فهمه وجودة تصوِّره وكمال إدراكه وقوة ذهنه، ثم مازال بعد رجوعه إلىٰ وطنه يكاتبني بالأشعار الرائقة والمسائل الفائقة فأجيب عليه بمضمون ما يكتبه إليَّ، **وهو مع ذلك يتأسف علىٰ مفارقتي وأتأسف علىٰ مفارقته؛ لما بيني وبينه من المودة الصادقة والمحبة الزائدة التي تفوق الوصف بل قد لا يتفق مثلها بين الأخوين الشقيقين**، وقد جرَتْ بيني وبينه من المطارحات الأدبية نظمًا ونثرًا ما لا يتَّسع له إلا مجلد».

(٢٦٩): «عبد الله بن محسن الحَيْمي ثم الصنعاني، واستفاد في عدة فنون ودرَّس في كثير منها ونقل كثيرًا من رسائلي، ومازال ملازمًا لي في كثير من الأوقات، **وبيني وبينه صداقة خالصة ومحبة صحيحة»**.

(٣٠٦): «علي بن أبي بكر نور الدين الهيْثَمي الشافعي الحافظ...

صحِب الزين العراقي ولم يفارقه سفرًا وحضرًا حتىٰ مات، ورافقه في جميع مسموعاته بمصر والقاهرة والحرمين وبيت المقدس ودمشق وبعْلَبك وحَماة وحلب وحِمص وطرابلُس وغيرها، ولم ينفرد أحدهما عن الآخر إلا بمسموعات



يسيرة ومشايخ قليلة، وصاحب الترجمة مكثر سماعًا وشيوخًا، **ولم يكن الزين يعتمد في شيء من أموره إلا عليه، وزوَّجه ابنته ورُزق منها عدة أولاد، وكتب الكثير من تصانيف الزين، وقرأ عليه أكثرها وتخرج به**».

(٣٦٥): «القاسم بن أحمد بن عبد الله بن القاسم...

وبيني وبينه مودة أكيدة ومحبة قوية، وهو لا يمل جليسَه ولا يستوحش أنيسه؛ لما جُبل عليه من لطف الطبع وكمال الظرف، وقد استمر الاتصال بيني وبينه زيادة علىٰ خمس عشرة سنة، قل أن يمضي يوم من الأيام لا نجتمع فيه ويجري بيننا مطارحات أدبية في كثير من الأوقات ومراجعات علمية في عدة مسائل منها ما هو منظوم ومنها ما هو منثور».

لا يشتغل بردود المجاهيل!

(١٥٦): «الحسين بن يحيىٰ بن إبراهيم الدَّيْلمي الذَّماري...

ومن جملة من اشتغل بِها [١] فقهاء (ذمار) وقاموا وقعدوا وكانوا يسألون صاحب الترجمة عن ذلك ويتهمونه بالموافقة لما في الرسالة؛ لما يعلمونه من المودة التي بيني وبينه، فسلك مسلك غيره ممن قدمت الإشارة إليهم من أهل العلم بل زاد علىٰ ذلك فحرر جوابًا طويلًا علىٰ تلك الرسالة موهمًا لهم أنه قد أنكر بعض ما فيها، فلما بلغني أنه أجاب ازداد تعجُّبي لعلمي أنه لا يجهل مثل ذلك ولا يخفىٰ عليه الصواب، فلما وقفتُ علىٰ الجواب وهو في كراريس رأيته لم يبعُد عن الحق، ولكنه قد أثار فتنة بجوابه لظن العامة ومن شابَهَهم أن مثل هذا العالم الذي هو لي من المحبِّين لا يجيب إلا وما فعلتهُ مخالف للصواب، فأجبتُ عليه بجواب مختصر تناقله المشتغلون بذلك وفيه بعض التخْشين، ثم إنه -عافاه الله- اعتذر إلي مرات، **ولم أشتغل بجواب علىٰ غيره؛ لأنهم ليسوا بأهل لذلك، وفي الجوابات ما لا يقدر علىٰ تحريره إلا عالم، ولكنهم لم يسموا أنفسهم فلم اشتغل بجواب من لا أعرفه**».

---

(١) أي: بالرد علىٰ كتاب الشوكاني «إرشاد الغبي إلىٰ مذهب أهل البيت في صحب النبي ﷺ».



الصبر على جفاء الأهل!

(١٥٦): «الحسين بن يحيىٰ بن إبراهيم الدَّيْلمي الذَّماري...

والمترجَم له -عافاه الله- مستمر علىٰ حاله الجميل، ناشر للعلم في مدينة (ذمار)، مكثر من أعمال الخير، قائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمقدار ما يمكن مع سلامة صدر وكرامة أخلاق وحسن محاضرة وجميل مذاكرة، **واحتمال لما يلاقيه من الجفاء الزائد من أهل بلده**؛ بسبب نشره لعلم الحديث بينهم، وميله إلىٰ الإنصاف في بعض المسائل مع مبالغته في التكتم وشدة احترازه».

وأي كريم قد أجبت له شكوى!

(١٦٨): «داود بن الهادي بن أحمد... ومن شعره:

إلىٰ اللهِ أشكو عالِمِ السرِّ والنَّجوىٰ ... تحمُّلَ همٍّ لا يُطيق لهُ رَضْوىٰ
وجورِ زمانٍ دأبهُ خفضُ كاملٍ ... ورفعُ الذي لا خيرَ فيهِ ولا جَدوىٰ
عتبْتُ علىٰ دهري فقلتُ إلىٰ متىٰ ... تعاملني بالضدِّ منْ كلِّ ما أهوىٰ
فقال مجيبًا لي بعُنفٍ وغلظةٍ: ... وأيُّ كريمٍ قدْ أجبتُ لهُ شكوىٰ

مَن هي الفرقة الناجية؟

(١٧٦): «السيد زيد بن محمد بن الحسن بن الإمام القاسم بن محمد، المحقق الكبير شيخ مشايخ صنعاء في عصره في العلوم الآلية بأسرها...

رأيتُ له رسالة أخرىٰ في تبيين الفرقة الناجية، وأحسنَ القول فيها، **وَرَجَّح أنهم من كان علىٰ النَّمط الذي كان عليه الصحابة**».

أيهما أفضل شهارة أم صنعاء؟

(١٧٩): «الشريفة زينب بنت محمد بن أحمد بن الإمام الحسن بن علي ابن داود المؤيدي، الأديبة الشاعرة المجيدة، من شعرها القصيدة التي كتبتها إلىٰ زوجها السيد علي بن الإمام المتوكل علىٰ الله إسماعيل، ومطلعها:

أَصِخْ لي أيّها الملكُ الهُمامُ ... عليكَ صلاةُ ربِّكَ والسلامُ

ومن شعرها المقطوع الذي فضَّلتْ فيه شهارة علىٰ صنعاء، وهو:

وقائلٍ لي آزالُ ليس تشبِهُها ... شهارةٌ قلتُ قفْ لي واستمعْ مثَلي
أليسَ صنعاءُ تحتَ الظهرِ معْ ضِلَع ... أما شهارةُ فوقَ النّحرِ والمقَل

والنَّحر والمُقل موضعان بشهارة، كما أن وادي ظَهْر وضِلَع موضعان قريب صنعاء، ولها أشعار كثيرة، وقد فارقها علي بن المتوكل ثم تزوجها غيره، وكانت تعرف النحو والأصول والمنطق والنجوم والرَّمل والسيمياء، وماتت في شهر محرم سنة (١١١٤) أربع عشرة ومئة وألف بشهارة».

مِن أجلِّ التفاسير وأحسنها!

(١٨١): «أبو السعود أفنْدي الإمام الكبير عالم الروم، برع في جميع الفنون وفاق الأقران...

وله تصانيف منها التفسير المشهور عند الناس بأبي السعود في مجلدين ضخمين سماه «إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم»، **وهو من أجلِّ التفاسير وأحسنها وأكثرها تحقيقًا وتدقيقًا**، وأهداه للسلطان سليمان خان فأنعم عليه بنعم عظيمة، وزاد في معلومه اليومي زيادة واسعة، وكان قد تناهت عظمته في الممالك الرومية وصار المرجع في جميع ما يتعلق بالعلم».

قرأ «صحيح البخاري» خمسين مرة!

(١٨٥): «سليمان بن إبراهيم بن عمر بن علي بن عمر بن نفيس الدين العَكِّي العدناني الزبيدي التَّعزي الحنفي، ويعرف بنفيس الدين العلوي نسبة إلىٰ علي ابن راشد شيخِه... وبرع في الحديث وصار شيخ المحدثين ببلاد اليمن وحافظهم، وأخذ عنه الناس طبقة بعد طبقة وارتحلوا إليه من الآفاق، وتتلمذ له ما لا يحيط به

الحصر، حدث عن نفسه أنه قرأ «البخاري» أكثر من خمسين مرة، ووصفه شيخه صاحب «القاموس» فقال: إمام السنة».

فأذعَن للقضاء!

(١٨٦): «سليم بن بايزيد بن محمد بن مراد بن محمد بن بايزيد بن مراد ابن أورخان بن عثمان الغازي، سلطان الروم وابن سلاطينها، ولد سنة (٨٧٢) اثنتين وسبعين وثمان مئة، واستولىٰ علىٰ جميع ما كان تحت يد أبيه، واستفتح مصر والشام وانتزعهما من يد سلطان الجَّراكِسة إذ ذاك وهو قانصوه الغوري وقتلَه، وغزىٰ إلىٰ بلاد العجم وحارب شاه إسماعيل -الآتي ذكرُه- وغلبه وقتل رجاله، وكان صاحب الترجمة سلطانًا عظيمًا شديد البطش عظيم الصولة سفاكًا للدماء طائش السيف، وكان قد أَخبر والده بعض الكهان أنه يكون ذهاب ملكه علىٰ يد ولد له سيُولد، فأمر القيِّمة علىٰ نسائه أن تقتل كل مولود ذكر فوُلِدَ صاحب الترجمة فأرادتْ قتله فأدركتها الشفقة عليه فتركَته وأظهرتْ أنه أنثىٰ اسمُها (سليمة)، فمضت علىٰ ذلك أيام ثم إن السلطان أراد أن يجمع بناته فجمعهن وفيهن صاحب الترجمة، فوضع لهن حلوىٰ فما زال صاحب الترجمة يأخذ ما في أيدي أخواته ويضربُهن، والسلطان ينظر إلىٰ ذلك، ثم مر زُنبور فأخذه ومرسَه بيده حتىٰ مات، فقال السلطان: هذا لا يكون إلا ذكرًا! فأصدقوه الخبر فأذْعنَ للقضاء، وكان زوال ملكه علىٰ يد صاحب الترجمة؛ فإنه قهَرَه وأخذ الملك من يده».

كثرة الأكل بلوى!

(١٩٣): «شاه شجاع بن محمد بن مظفَّر، ملك شيراز وعراق العجم، استقر في الملك بعد أن سجنَ أباه، وقرّرَ أخاه شاه محمود في بلاد (أصفهان) و(قم) و(قاشان)، وكان لصاحب الترجمة اشتغال بالعلم واشتهار بقوة الفهم ومحبة العلماء، وكان ينظم الشعر ويحب الأدباء ويجيز علىٰ المدايح، وقُصد من سائر البلاد، ويقال أنه كان يقرأ «الكشاف»، وكتب منه نسخة بخطه الفائق، وكان يعرف الأصول والعربية وله أشعار كثيرة بالفارسية، وطالت أيامه، وكان صاحب الترجمة قد **ابتلي بكثرة الأكل**؛ فكان يأكل ولا يشبع حتىٰ كان إذا توجه إلىٰ جهة تسير البغال محملة بالقدور التي عليها الأطعمة، ولا يزال يأكل وهو يسير، ولم يكن يقدر علىٰ الصوم وكان يُكفِّر!».

يَكتب ما لا يُناسب رفيع قدره!

(١٩٤): «السيد شرف الدين بن أحمد بن محمد بن الحسين بن عبد القادر ابن الناصر بن عبد الرب بن علي بن شمس الدين بن الإمام شرف الدين أمير (كوكبان) وبلادها، ولد في ربيع الآخر سنة (١١٥٩) تسع وخمسين ومئة وألف، واستقر في الإمارة بعد عمه عيسىٰ بن محمد بن الحسن، وهو الآن مستمر علىٰ الإمارة، وفيه عدل ورفق برعيته، **ولكنه يتعرض للكلام في المسائل العلمية إذا عرض ما يقتضي ذلك فيأتي بما لا يناسب رفيعَ قدره**، وقد كاتبني غير مرة وذاكرني في مسائل ونصحته فأظهر القبول ولم يفعل، واتفق في سنة (١٢١٣) -وهي السنة التي حررتُ فيها هذه التراجم- أنه وصل منه كتاب يتضمن أنه قد صحَّ لديه أن

أول شهر شعبان يوم الاثنين وأن أول رمضان يوم الأربعاء علىٰ كمال العدة، وأرسل به إلىٰ خليفة العصر -حفظه الله- فأرسل به الخليفة إليَّ فأجبت أن ذلك ليس بسبب شرعي يجب الصوم عنده؛ لأن صاحب الترجمة لم يكن مفتيًا حتىٰ يكون قوله: (صحَّ عندي) سببًا يجب له الصوم، ولم يذكر الشهود حتىٰ ينظر في شأنِهم ولا كتب الكتاب مَن بحضرته من العلماء حتىٰ يجب علينا العمل بأقوالهم، فلما وصل ذلك إلىٰ مولانا الإمام -حفظه الله- بنىٰ عليه وترك الإشعار بدخول رمضان ولم يُشعر بالصوم إلا ليلة الخميس، فلما بلغ ذلك صاحب الترجمة وقع عنده بموقع، وكتب إلىٰ مولانا يعاتبه، ويقول: إنَّها لم ترد شهادتُهم علىٰ الشهر إلا هذه المرة، وأنه قد كثر التعنتْ في شأن الشهادات، فلم يلتفت مولانا -حفظه الله- إلىٰ ذلك، ومن الغرائب أنه انكشف رجوع بعض الشهود الذين استند إليهم، وقد اتفق بيني وبينه تنازع في رجل من رعيته طلبه إلىٰ موقف الشرع رجل من أهل صنعاء فلم يحضر فأرسلت له رسولًا ففرَّ إلىٰ (كوكبان)، فعاد الرسول بكتاب منه مضمونه أنَّها لم تجرِ العادة بالإرسال لرعيته، فأرسلتُ رسولين وأمرتُهما بالبقاء في بيت الرجل فوصلا إلىٰ بيته ففرَّ إلىٰ (كوكبان) فبقيا في بيته فعظُم الأمر علىٰ صاحب الترجمة وتوجَّع من ذلك غاية التوجُّع، ثم بعد ذلك توسط بعض الناس علىٰ أن يحضر الرجل ويسلم أجرة الرسولين، وكثيرًا ما يجري بيني وبنيه من هذا، وما كنتُ أود له التصميم في مثل هذا الأمور الشرعية، فإنه كثير المحاسن لولا هذه الخصلة التي كادت تغطي علىٰ محاسنه، وهو غير

مدفوع عن بعض عرفان وحفظ للآداب، ولكنه ليس ممن يناظر في المسائل ويعارض في الدلائل».

واتفق في موته موعظة فيها أعظم عبرة!

(١٩٩): «شيخ المحمودي ثم الظاهري الجركسي...

واتفق في موته موعظة فيها أعظم عبرة، وهي أنه لما غُسِّل لم توجد منشفة ينشَّفُ بِها فنشِّف بمنديل بعض من حضر غسله، ولم يوجد له مئزر يستر عورته، حتىٰ أخذ له مئزر صوف من فوق رأس بعض جواريه، ولم يوجد له طاسة يصب عليه بِها الماء مع كثرة ما خلَّفهُ من أنواع المال».

ضاع الوفاء!

(٢٠١): «صالح بن عبد الله بن علي بن داود...

وله فصاحة ورجاحة وتعبُّد وتألُّه، وله شعر فائق، فمنه القصيدة المشهورة التي أولها:

ضاعَ الوفاءُ وضاعتْ بعدهُ الهممُ ... والدِّينُ ضاعَ وضاعَ المجدُ والكرمُ
والجورُ في الناسِ لا تخفىٰ معالمهُ ... والعدلُ مِن دونهِ الأستارُ والظلمُ
وكلُّ مَن تابعَ الشيطانَ محترَمٌ ... وكلُّ مَن عبدَ الرحمنَ مُهْتَضَمُ

بَذَرَ في مكة والثمرة في (داغستان)!

(٢٠٥): «صالح بن مهدي المقبَلي ثم الصنْعاني ثم المكي...

وهو ممن برع في جميع علوم الكتاب والسنة، وحقق الأصولين والعربية والمعاني والبيان والحديث والتفسير، وفاق في جميع ذلك، وله مؤلفات مقبولة كلها عند العلماء محبوبة إليهم متنافسون فيها ويحتجُّون بترجيحاته، وهو حقيق بذلك، وفي عباراته قوة وفصاحة وسلاسة تعشقها الأسماع وتلتذ بِها القلوب، ولكلامه وقع في الأذهان قلَّ أن يمعن في مطالعته من له فهم فيبقىٰ علىٰ التقليد بعد ذلك، وإذا رأىٰ كلامًا متهافتًا زيَّفه ومزقه بعبارة عذبة حلوة... ولما سكن مكة وقف عالمها البرْزَنجي محمد بن عبد الرسول المدني علىٰ «العلم الشامخ في الرد علىٰ الآباء والمشايخ»، فكتب عليه اعتراضات، فرد عليه بمؤلف سماه «الأرواح النوافخ»، فكان ذلك سبب الإنكار عليه من علماء مكة ونسبوه إلىٰ الزندقة بسبب عدم التقليد والاعتراض علىٰ أسلافهم، ثم رفعوا الأمر إلىٰ سلطان الروم فأرسل بعض علماء حضرته لاختباره فلم يرَ منه إلا الجميل، وسلك مسلكه وأخذ عنه بعض أهل (داغسْتان) ونقلوا بعض مؤلفاته.

وقد وصل بعض العلماء من تلك الجهة إلىٰ صنعاء وكان له معرفة بأنواع من العلم، فلقيته بمدرسة الإمام شرف الدين بصنعاء فسألته عن سبب ارتحاله من دياره هل هو قضاء فريضة الحج؟ فقال لي بلسانٍ في غاية الفصاحة والطلاقة: إنه لم يكن مستطيعًا، وإنما خرج لطلب «البحر الزخَّار» للإمام المهدي أحمد بن يحيىٰ؛ لأن لديهم «حاشية المَنار» للمقْبلي، وقد ولِع بمباحثها أعيان علماء

جهاتِهم (داغستان)، وهي خلف الروم بشهر، حسبما أخبرني بذلك، قال: وفي حال مطالعتهم واشتغالهم بتلك «الحاشية» يلتبس عليهم بعض أبحاثها لكونِها معلقة علىٰ الكتاب الذي هي حاشية له وهو «البحر»، فتجرد المذكور لطلب نسخة «البحر» ووصل إلىٰ مكة فسأل عنه فلم يظفر بخبره عند أحد، فلقي هنالك السيد العلامة إبراهيم بن محمد بن إسماعيل الأمير فَعرَّفه أن كتاب «البحر» موجود في صنعاء عند كثير من علمائها قال: فوصلتُ إلىٰ هنا لذلك، ورأيته في اليوم الثاني وهو مكبٌّ في المدرسة علىٰ نسخة من «البحر» يطالعها مطالعة من له كمال رغبة، وقد سُرَّ بذلك غاية السرور، وما رأيت مثله في حسن التعبير واستعمال خالص اللغة وتحاشي اللحن في مخاطبته وحسن النغمة عند الكلام، فإني أدركت لسماع كلامه من الطرب والنشاط ما علاني معه قشعريرة، ولكنه -رحمه الله- مات بعد وصوله إلىٰ صنعاء بمدة يسيرة، ولم يكتب الله له الرجوع بالكتاب المطلوب إلىٰ وطنه!».

في الله العَوض وحُسن الخَلَف!

(٢٠٥): «صالح بن مهدي المقْبَلي ثم الصنْعاني ثم المكي...

وقد ذكر في مؤلفاته من أشعاره ولكنها سافلة بخلاف نثره فإنه في الذروة، ومن أحسن شعره أبياته التي يقول فيها:

قـــــبَحَ الإلـــــــهُ مفرِّقًـــــا ... بـــــين القرابـــــةِ والصـــــحابةْ

وقد أجاب عليه بعض جارودية اليمن بجواب أقذع فيه، وأوله:

أطـــــرقْ كـــــرًا يـــــا مَقبلـــــيْ ... فلأنـــــتَ أحقـــــرُ مـــــنْ ذبابـــــةْ

ثم هجاه بعض الجارودية فقال:

المقبلـــــــــيُّ ناصـــــــبيْ أعمـــــىٰ الشـــقاءُ بصـــرَهْ

وبعده بيت أقذَع فيه، وهكذا شأن غالب أهل اليمن مع علمائهم، ولعل ذلك لما يريده الله لهم من توفير الأجر الأخروي».

مِن مساوئ التعصب المذهبي!

(٢٠٧): «صدِّيق بن علي المزْجاجي الزَّبيدي الحنَفي...

وصل إلىٰ صنعاء في شهر القعدة سنة (١٢٠٣)، ووصل إليَّ ولم أكن قد عرفته قبل ذلك ولا عَرَفني، وجرت بيني وبينه مذاكرات في عدة فنون...

وفي بعض المواقف بمحضر جماعةٍ وقعت بيني وبينه مراجعة في مسائل، وأكثرت الاعتراض علىٰ مسائل من فقه الحنفية وأوردت الدليل وما زال يتطلب المحامل لما تقوله الحنفية، فلما خلوتُ به قلتُ له: اصدقني! هل ماتبديه في المراجعة تعتقده اعتقادًا جازمًا؟ فإن مثلك في علمك بالسنة لا يُظن به أنه يؤثر مذهبه الذي هو محض الرأي في بعض المسائل علىٰ ما يعلمه صحيحًا ثابتًا عن رسول الله ﷺ، فقال: لا أعتقد صحة ما يخالف الدليل وإن قال به من قال، ولا أدين الله بما يقوله أبو حنيفة وأصحابه إذا خالف الحديث الصحيح، **ولكن المرء يدافع عن مذهبه في الظاهر**».



تضمين يطرب له الجماد وترق لحسنه الصم الصلاد!

(٢٠٨): «صلاح بن أحمد بن مهدي المُؤيدي، كان من عجائب الدهر وغرائبه؛ فإن مجموع عمره تسع وعشرون سنة وقد فاز من كل فن بنصيب وافر، وصار له في الأدب قصائد طنَّانة يعجز أهل الأعمار الطويلة عن اللحاق به فيها، وصنف في هذا العمر القصير التصانيف المفيدة والفوائد الفريدة العديدة، فمن مصنفاته «شرح شواهد النحو»، واختصر «شرح العباسي» لشواهد «التلخيص»، وشرَح «الفصول» شرحًا حافلًا، وشرح «الهداية» ففرغ من الخطبة وقد اجتمع من الشرح مجلد، وله مع ذلك ديوان شعر كله غررٌ ودررٌ، وفيه معانٍ مبتكرَة، فمنه:

وصغيرةٍ حاولْتُ فضَّ ختامِها ... منْ بعدِ فرطِ تحننٍ وتلطُّفِ

وقلبْتُها نحوي فقالتْ عند ذا ... قلبيْ يحدثني بأنَّكَ مُتْلفيْ

وهذا تضمين يطرب له الجماد، وترق لحسنه الصُّمُّ الصِّلاد».

مُتعة القراءة حتى في السفر!

(٢٠٨): «صلاح بن أحمد بن مهدي المُؤيدي...

وكان دأبهُ إذا سافر أول ما تضرب خيمة الكتب، وإذا ضُربت دخل إليها ونشر الكتب، والخدَم يصلحون الخيم الأخرىٰ، ولا يزال ليلَهُ جميعَهُ ينظر في العلم ويحرر ويقرر، مع سلامة ذوق».

العناية بالطلبة النُّبهاء!

(٢٠٩): «صلاح بن حسين بن يحيىٰ بن علي الأخْفَش الصنعاني، العالم المحقق الزاهد المشهور...

وكان طلبةُ العلم في عصره يتنافسون في الأخذ عنه وهو يمتحنهم بالأسئلة، فإذا رأىٰ من أحد فطنة مال إليه وعظَّمه ونوَّه بذكره».

إذا بلغت المنافسة إلى حد الحَطِّ على خير القرون فأبعدها الله!

(٢٠٩): «صلاح بن حسين بن يحيىٰ بن علي الأخْفش الصنْعاني، وله «رسالة في الصحابة» سلك فيها مسلك التنزيه لهم علىٰ ما فيها من تطفيف لما يستحقونه، ومع ذلك اعترض عليها السيد العلامة عبد الله بن علي الوزير باعتراض سماه «إرسال الذؤابة بين جنبَي مسألة الصَّحابة»، وحاصل ما في هذا الاعتراض هدم ما بناه السيد صلاح من التنزيه للصَّحابة عن السب والثلب، فإنا لله وإنا إليه راجعون! وكان بين هذين السيدين منافسة عظيمة ومناقضة ظاهرة، ومازال الأقران هكذا، **ولكن إذا بلغت المنافسة إلىٰ حد الحط علىٰ خير القرون فأبعدها الله!**».

مِن أعظم مصائب الأديان!

(٢١٩): «عامر بن عبد الوهاب بن داود بن طاهر، ملك اليمن بعد أبيه ولُقِّب الملك الظافر، فاختلف عليه بنو عامر فقهرهم وأذعنوا، وملك اليمن الأسفل و(تِهامة) ثم صنعاء و(صعدة) وغالب ما بينهما من الحصون، ولما خرج الجَراكِسة إلىٰ اليمن غلبوه -بالسبب الذي قدمْته في ترجمة الإمام شرف الدين- واستولوا علىٰ جميع ذخايره وهي شيء يفوق الحصر، وأخرجوه من مداينه وقتلوه قريب صنعاء في آخر شهر ربيع سنة (٩٢٣) ثلاث وعشرين وتسع مئة، وقد شرح ما جرىٰ له الدَّيْبع في «بغية المستفيد بأخبار مدينة زبيد»، وفي«قرة العيون بأخبار اليمن الميمون»، وكان يحب العلماء ويكرمهم ويحب الكتب حتىٰ اهتم



بتحصيل «فتح الباري» ولم يكن إذ ذاك باليمن، وكذلك كتاب «الخادم» للزركشي...

ومحبة الرياسة والتنافس فيها من أعظم مصائب الأديان، نسأل الله السلامة والعافية!».

خروجٌ لإهلاك الرعية!

(٢٢١): «الإمام المهدي لدين الله العبّاس...

وكان يدفع عن الرعايا ما ينوبُهم من البغاة الذين يخرجون في الصورة علىٰ الخليفة وفي الحقيقة لإهلاك الرعية، فكان تارة يتألّفهم بالعطاء وتارة يرسل طائفة من أجْناده تحول بينهم وبين الرعية».

أوَّلُ مَن سُمِّي بعبد الباسط!

(٢٢٣): «عبد الباسط بن خليل بن إبراهيم الدمشقي ثم القاهري، قال السخاوي: **هو أول من سُمّي بعبد الباسط**».

وهذا شأن هذه الدنيا!

(٢٢٣): «عبد الباسط بن خليل بن إبراهيم الدمشقي ثم القاهري...

ومن غرائب ما اتفق لصاحب الترجمة أن جَوهَر القيقباي رام أن يخدم عنده فما وافق، ثم ترقّىٰ حتىٰ صار صاحب الترجمة خاضعًا له ماشيًا في أغراضه راضيًا وكارهًا، وكذلك أحضرت أم العزيز إلىٰ صاحب الترجمة ليشتريَها قبل وصولها إلىٰ الأشرف فامتنع، فصارت إلىٰ الأشرف وحظيت عنده، فصار المترجَم له يمشي في خدمتها وسار معها إلىٰ مكة يخدمها وربما مشىٰ، **وهذا شأن هذه الدنيا**».

ويقوم في غيبتي مقام الأخ الحميم!

(٢٢٥): «عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن علىٰ البهْكَلي الضّمدي...

ارتحل إلىٰ صنعاء رحلة ثانية وكنت إذ ذاك مشغولًا بالتدريس والتأليف والإفتاء، ولكنه قد جفاني جماعة من الذين لا يعرفون الحقائق لصدور اجتهادات مني مخالفة لما أَلِفوه وعرَفوه، وهذا دأبهم سلفًا عن خلف لا يزالون يعادون من بلغ رتبة الاجتهاد وخالف ما دأبوا عليه ودرجوا من مذاهب الآباء والأجداد، فوصل صاحب الترجمة في سنة (١٢٠٩) والمواحشة بيني وبين المذكورين زائدة ولهب نار الاختلاف صادعة، فقرأ عليَّ في «مختصر المنتهىٰ» و«شرحه» لعضد الدين و«حاشيته» للسعد وقرأ علي في «الخرازبة» و«شرحها» في العَروض، **ومازال يعادي أعداي ويوادِد أوداي، ويقوم في غيبتي مقام الأخ الحميم**، ويتوجَّع من أحوال أبناء الزمن، وما جُبل عليه طلبة العلم في قطر اليمن».

وذهاب هجرته سُدَى!

(٢٢٥/ ج): «إسماعيل بن أحمد، وصل إلىٰ صنعاء لعل ذلك في سنة (١٢١٥) وبقي بِها نحو عامين، وقد كان شرع يقرأ علىٰ الشيوخ في العلوم الدينية، **ثم بدا له الاشتغال بعلم الفلسفة فلم يظفر منها بطائل سوىٰ تضييع الوقت، وبطلان السعي، وذهاب هجرته سدىٰ**».

انتصاف الشوكاني للسيوطي!

(٢٢٩): «عبد الرحمن بن أبي بكر الجلال الأَسْيُوطي...

الإمام الكبير صاحب التصانيف... وتصانيفه في كل فن من الفنون مقبولة قد سارت في الأقطار مسير النهار، ولكنه لم يسلم من حاسد لفضله وجاحد لمناقبه؛ فإن السخاوي في «الضوء اللامع» -وهو من أقرانه- ترجمَه ترجمةً مظلمةً غالبها ثلْب فظيع وسب شنيع وانتقاص وغمْط لمناقبه تصريحًا وتلويحًا، ولا جرم فذلك دأبه في جميع الفضلاء من أقرانه...

وأقول: لا يخفىٰ علىٰ المنصف ما في هذا المنقول من التحامل علىٰ هذا الإمام فإنه ما اعترف به من صعوبة علم الحساب عليه لا يدل علىٰ ما ذكره من عدم الذكاء فإن هذا الفن لا يفتح فيه علىٰ ذكيٍّ إلا نادرًا كما نشاهده الآن في أهل عصرنا، وكذلك سكوته عند قول القائل له تجمع لك أهلَ كل فن من فنون الاجتهاد فإن هذا كلام خارج عن الإنصاف؛ لأن رب الفنون الكثيرة لا يبلغ تحقيق كل واحد منها ما يبلغه من هو مشتغل به علىٰ انفراده وهذا معلوم لكل أحد، وكذا قوله: «إنه مسَخ كذا وأخذ كذا» ليس بعيب فإن هذا مازال دأب المصنفين يأتي الآخر فيأخذ من كتب مَن قبله فيختصر أو يوضح أو يعترض أو نحو ذلك من الأغراض التي هي الباعثة علىٰ التصنيف، ومَن ذاك الذي يعمد إلىٰ فن قد صنف فيه مَن قبله فلا يأخذ من كلامه، وقوله: «إنه رأىٰ بعضها في ورقة» لا يخالف ما حكاه صاحب الترجمة من ذكر عدد مصنفاته فإنه لم يقل: إنَّها زادت علىٰ ثلاث مئة مجلد بل قال: إنَّها زادت علىٰ ثلاث مئة كتاب، وهذا الاسم

يصدق علىٰ الورقة وما فوقها، وقوله: «إنه كذّبه القميصيُّ بتصريحه أنه بقي من المسند بقية» ليس بتكذيب فربما كانت تلك البقية يسيرة والحكم للأغلب لاسيما والسهو والنسيان من العوارض البشرية، فيمكن أنه حصل أحدهما للشيخ أو تلميذهُ، وقوله: «أنه كثير التصحيف والتحريف» مجرد دعوىٰ عاطلة عن البرهان فهذه مؤلفاته علىٰ ظهر البسيطة محررة أحسن تحرير ومتقنة أبلغ إتقان، وعلىٰ كل حال فهو غير مقبول عليه لما عرفتَ من قول أئمة الجرح والتعديل بعدم قبول الأقران في بعضهم بعضًا مع ظهور أدنىٰ منافسة، فكيف بمثل المنافسة بين هذين الرجلين التي أفضتْ إلىٰ تأليف بعضهم في بعض، فإن أقل من هذا يوجب عدم القبول، والسخاوي ﷺ وإن كان إمامًا غير مدفوع لكنه كثير التحامل علىٰ أكابر أقرانه كما يعرف ذلك من طالع كتابه «الضوء اللامع» فإنه لا يقيم لهم وزنًا بل لا يسلم غالبهم من الحطِّ منه، عليه وإنما يعظم شيوخه وتلامذته ومن لم يعرفه ممن مات في أول القرن التاسع قبل موته أو من كان من غير مصْره أو يرجو خيره أو يخاف شره».

سنة الله تعالى: رفع ذكر العلماء الأحرار!

(٢٢٨): «عبد الرحمن بن أبي بكر الجلال الأسْيُوطي...

جرَت عادة الله سبحانه -كما يدل عليه الاستقراء- برفع شأن من عُودي لسبب علمه وتصريحه بالحق وانتشار محاسنه بعد موته وارتفاع ذكره وانتفاع الناس بعلمه، وهكذا كان أمر صاحب الترجمة فإن مؤلفاته انتشرت في الأقطار وسارت



بِها الركبان إلىٰ الأنجاد والأغوار، ورفع الله له من الذكر الحسن والثناء الجميل ما لم يكن لأحد من معاصريه، والعاقبة للمتقين».

لن يسلم العالم الحُرُّ مِن الامتحان!

(٢٣٤): «عبد الرحمن بن محمد بن نَهْشل الحَيمي، الحافظ الكبير العلامة الشهير، كان من العلماء الجامعين بين علم المعقول والمنقول، وله اشتغال بالتدريس في الأمهات ونشرها... **ولكنه ما سلِم من الامتحان من أهل عصره؛ لسبب اشتغاله بالأمهات علمًا وعملًا وتدريسًا، وليس ذلك ببدع فهذا شأن هذه الديار من قديم الأعصار**، وبالجملة فصاحب الترجمة من أكابر العلماء المتبحِّرين في جمع العلوم، ومازال مُكبًّا علىٰ ذلك حتىٰ توفاه الله تعالىٰ سابع وعشرين ربيع الأول سنة (١٠٦٨) ثمان وستين وألف بصنعاء».

رُزِقَ السعادة في ولده ورفيقه وتلامذته!

(٢٣٧): «عبد الرحيم بن الحسين العراقي، الحافظ الكبير وكان منوَّر الشيبة، جميل الصورة، كثير الوقار، نزر الكلام، طارحًا للتكلف، ضيِّق العيش، شديد التوقي في الطهارة، لا يعتمد إلا علىٰ نفسه أو علىٰ رفيقه الهيْثمي، وكان كثير الحياء مُنْجمعًا عن الناس حسن النادرة والفكاهة... وقد رُزق السعادة في ولده الوليِّ فإنه كان إمامًا -كما تقدم في ترجمته- وفي رفيقه الهيْثمي فإنه كان حافظًا كبيرًا، ورُزق أيضًا السعادة في تلامذته فإن منهم الحافظ ابن حجر وطبقته».

ويكتب ويداه إلى جهة السقف!

(٢٣٨): «عبد الرازق بن أحمد المعروف بابن الفُوطي...

وكان مع حسن خطه يكتب في اليوم أربع كراريس، قال الصَّفَدي: أخبرني من رآه ينام ويضع ظهره إلىٰ الأرض ويكتب ويداه إلىٰ جهة السقف، وقال الذهبي: كانت له يدٌ بيضاء في النظم وترصيع التراجم، وله ذهن سالم، وقلم سريع وخط بديع، وبصر بالمنطق والحكمة»[١].

---

(١) قلت: وهكذا كان شيخنا فقهيه اليمن القاضي محمد بن إسماعيل العمراني حين أُصيب بالمرض في آخر حياته، يتجلد لكتابة الفتاوىٰ وظهره علىٰ الأرض ويداه في الأعلىٰ، إحداهما تمسك الورقة والأخرىٰ تخط العِلم، فرحمه الله وسقاه من سلسبيل الجنة.



لما أراد الله إحياء علوم الحديث بل وسائر العلوم بصنعاء!

(٢٤٤): «عبد القادر بن أحمد...

شيخنا الإمام المحدث الحافظ المُسْند المجتهد المُطلَق، طار صيته في جميع الأقطار اليمنية، وأقرَّ له بالتفرد في جميع أنواع العلم كلُّ أحد بعد موت شيخه السيد العلامة محمد بن إسماعيل الأمير، وإني أذكر وأنا في المكتب مع الصبيان أني سألت والدي ﵀ عن أعلم من بالديار اليمنية إذ ذاك فقال فلان؛ يعني صاحب الترجمة... ثم لما أراد الله إحياء علوم الحديث بل وسائر العلوم بصنعاء جرَتْ بينه وبين أمير (كوكبان) السيد إبراهيم بن محمد بن الحسين مُناكدة، فأظهر أنه يريد الخروج من (كوكبان) إلىٰ (وادي ظَهر) للتنزه به أيام الخريف فأذن له السيد إبراهيم فخرج واستقر أيامًا بوادي ظهر، وما زال يرسل لأهله ولكتبه ولجميع ما يحتاج إليه، ثم كتب إلىٰ الوزير الخطير الحسن بن علي حَنش -المتقدم ذكره- بأنه يريد الانتقال إلىٰ صنعاء فرفع القضية إلىٰ خليفة العصر -حفظه الله- فأذن بذلك وأنزله بدار الفَرَج من (بير العَزَب) فسكن فيها، ووفد إليه أكابر علماء صنعاء وأخذ عنه جماعة من أعيانِهم».

علاقة علمية حميمة بين الشيخ وتلميذه!

(٢٤٤): «عبد القادر بن أحمد...

وسمعتُ منه في غير هذه الكتب مما لم أستحضره حال تحرير هذه الترجمة، وكانت القراءات جميعها يجري فيها من المباحث الجارية علىٰ نمط الاجتهاد في الإصدار والإيراد ما تُشد إليه الرحال، وربما انجرَّ البحث إلىٰ تحرير رسائل

مطولة، ووقع من هذا كثير وكنت أحرر ما يظهر لي في بعض المسائل وأعرضه عليه فإن وافق ما لديه من اجتهاده في تلك المسألة قرّظه تارة بالنظم الفائق وتارة بالنثر الرائق، وإن لم يوافق كتب عليه ثم أكتب علىٰ ما كتبه، ثم كذلك فإن بعض المسائل التي وقعت فيها المباحثة حال القراءة اجتمع ما حررته وحرره فيها إلىٰ سبع رسائل، وكان ﵀ متبحرًا في جميع المعارف العلمية علىٰ اختلاف أنواعها؛ يعرف كل فن منها معرفة يظن من باحثه فيه أنه لا يحسن سواه، والحاصل أنه من عجائب الزمن ومحاسن اليمن، يرجع إليه أهل كل فنٍّ في فنِّهم الذي لا يحسنون سواه فيفيدهم، ثم ينفرد عن الناس بفنون لا يعرفون أسماءها فضلًا عن زيادة علىٰ ذلك... **وبيني وبينه مكاتبات أدبية من نظم ونثر ولم يحضر حال تحرير هذا إلا هذه، وقد كان ﵀ يميل إليّ كل الميل ويؤثرني أبلغ تأثير، وما سألته القراءة عليه في كتاب فأبىٰ قط، بل كان يبتدئني تارات ويقول: تقرأ في كذا. وكان يبذل لي كتبه ويؤثرني بها علىٰ نفسه»**.

حُسنُ التعليم!

(٢٤٤): «وله في حسن التعليم صناعة لا يقدر عليها غيره؛ فإنه يجذب إلىٰ محبته وإلىٰ العمل بالأدلة مَن طبعُه أكثفُ من الصخر، وإذا جالسه منحرف الأخلاق أو من له في المسائل الدينية بعض شقاق جاء من سحر بيانه بما يؤلف بين الماء والنار ويجمع بين الضبِّ والنُّون فلا يفارقه إلا هو عنه راض، ولقد كنت أرىٰ منه من هذا الجنس ما يزداد منه تعجبي، ولذا تم خبرُه بأحوال الناس وبما يليق بكل واحد منهم وما يناسبه وما لا يناسبه».



مَجْمَعُ عُلوم ومُلتقى مَعارِف!

(٢٤٤): «وكان الناس يقصدونه علىٰ اختلاف طبقاتهم فأهل العلم يقصدونه ليستفيدوا من علمه، والأدباء ليأخذوا من أدبه ويعرضوا عليه أشعارهم، والمحاويج يأتونه ليشفع لهم عند أرباب الدنيا ويواسيهم بما يُمكنه -وكرمه كلمة إجماع- والمرضىٰ يلوذون به لمداواتِهم، وغرباء الديار من أهل العلم يُنزلهم في منزله ويفضل عليهم بجميع ما يحتاجونه ويسعىٰ في قضاء أغراضهم ونيل مطالبهم، وهو مقبول الشفاعة وافر الحُرمة عظيم الجاه، وبالجملة فلم ترَ عيني مثله في كمالاته، ولم آخذ عن أحد يساويه في مجموع علومه، ولم يكن بالديار اليمنية في آخر مدته له نظير».

يُخفي بعض علومه جَبرًا للخواطر!

(٢٤٤): «وكان لما جُبل عليه من حسن الأخلاق **لا يُبدي من علومه عند المناظرة ما ينقطع به من يناظره لاسيما إذا كان من يناظره من المقصِّرين؛ كل ذلك محبة منه لجبر الخواطر وائتلاف القلوب**، وربما يتأثر عن ذلك لبعض من لم يُحط به خُبرًا أنه ليس كما يقول الناس في التفرد بالعلم، وقد سمعت هذا من كثير من الذين لم يبلغوا في العلم مبالغَ الكمال، ولو عرفوه كما عرفه أهل الكمال الممارسون له لعلموا بأن الحامل له علىٰ التسامح في مناظرتِهم ما جُبل عليه من سَجاحة الخُلق».

يَنثر المحاسن ويطوي المساوئ!

(٢٤٤): «وكان ﵀ لا يتعرض لتنقيص أحد كائنًا من كان، بل **يذكر من كل أحد ما اشتمل عليه من المحاسن ويغطي عن مساويه وهو أعرف بِها من غيره، ويبالغ في وصف من له اشتغال بالعلم وينشر من محاسنه ما لا يسمح به غيره**؛ بعبارات تعشقها القلوب، وترتشفها الأسماع، وتُقبل عليها الطباع».

يُشاور شيخه في التأليف!

(٢٤٤): «وهو ﵀ من جملة من رغَّبني في تأليف شرحٍ علىٰ «المنتقىٰ» فشرعتُ فيه في حياته وعرضتُ عليه كراريس من أوله فقال: إذا كمُل علىٰ هذه الكيفية كان في نحو عشرين مجلدًا وأهل العصر لا يرغبون فيما بلغ من التطويل إلىٰ دون هذا المقدار، ثم أرشدني إلىٰ الاختصار ففعلتُ، فكمُل بحمد الله وبيضْته في أربع مجلدات، ولم يكمُل إلا بعد موته بنحو ثلاث سنين».



نفع التصانيف أكثر من نفع التعليم بالمشافهة![١]

(٢٤٤): «ولم يكن له كثرة اشتغال بالتأليف ولو أراد ذلك لكان له في كل فن ما لا يقدر عليه غيره، وله رسائل حافلة ومباحث مطولة هي مجموعة في مجلد، والكثير منها لم يكن فيه فإنه كان مقصودًا بالمشكلات في كل فن من جميع الأقطار اليمنية، ولكنه لم يحرص علىٰ جمع ذلك كلِّية الحرص».

عُزِلَ ولده عن الخطابة فمات كمدًا!

(٢٤٨): «عبد القادر بن محمد الطبَري المكِّي الشّافعي...

واتفقت له محنة كانت سبب موته، وذلك أنه استناب ولده يخطب للعيد وكانت أول خطبة حصلت له، فتهيأ لذلك فمنعه بعض أمراء الأرْوام الواردين إلىٰ مكة ذلك العام ورغب في أن يكون الخطيب حنفيًّا، فعظم ذلك علىٰ صاحب

---

(١) أرأيتَ لو جُمع عِلم هذا الحبر البحر فكم سيكون الانتفاع به من عصره إلىٰ عصرنا؟!

ورحم الله الحافظ ابن الجوزي القائل: «رأيتُ من الرأي القويم أن نفع التصانيف أكثر من نفع التعليم بالمشافهة؛ لأني أشافه في عمري عددًا من المتعلمين، وأشافه بتصنيفي خَلْقًا لا تحصىٰ ما خلقوا بعد، ودليل هذا أن انتفاع الناس بتصانيف المتقدمين أكثر من انتفاعهم بما يستفيدونه من مشايخهم». «صيد الخاطر» (٢٢٨).

وقال علامة الشام جمال الدين القاسمي ﵀: «وجَليٌّ أنّ طبع كتاب خيرٌ مِن ألفِ داعٍ يتفرقون في الأقطار؛ لأنَّ الكتاب يأخذه الموافقُ والمخالف، والداعي قد يجد من العوائق ما لا يظفر بأمنيته، وكان بعض الحكماء يقول: مقال في جريدة خير من ألف درس للعامة». «االرسائل المتبادلة بين جمال الدين القاسمي ومحمود شكري الآلوسي» (٥٦).

الترجمة جدًّا وفاضت نفسه في الحال كمَدًا، وذلك في سنة (١٠٣٢) اثنتين وثلاثين وألف، وكان موته والخطيب علىٰ المنبر، وقُدِّم للصلاة عليه بعد تلك الخطبة».

رعاية الشوكاني لحق شيخه المُناكد له!

(٢٥٧): «عبد الله بن إسماعيل بن حسن بن هادي النِّهمي...

وهو أحد شيوخي في أوائل طلبي للعلم... وله عناية تامة بتخريج الطلبة والمواظبة علىٰ التدريس وتوسيع الأخذ وجلب الفوائد إليهم بكل ممكن، ولا يمَلّ حتىٰ يمَلّ الطالب، وكان يؤثرني علىٰ الطلبة، وإذا انقطعت القراءة يومًا أو يومين لعذر تأسف علىٰ ذلك، ثم لما مضتْ أيام طويلة وقعدتُ لنشر العلم في الجامع المقدس بصنعاء، وكنت إذ ذاك مقصودًا بالفتاوىٰ الكبيرة والمسائل المشكلة، وجمعت الرسالة التي حكيتها في ترجمة السيد العلامة الحسين بن يحيىٰ الديلمي كان شيخنا هذا أحد المجيبين عليّ، وهو الذي أشرت إليه إجمالًا هنالك -عفا الله عنه- وحال تحرير هذه الأحرف قد فتر عزمه عن التدريس ولم يبق للطلبة رُغوب إليه، وصار معظم اشتغاله بما لا بد منه من أمر المعاش مع رِكّة حاله -لاطَفه الله- **ولم أزل راعيًا لحقه معظّمًا لشأنه مُعرضًا عما بدر منه مما سلف، وأبلغ الطاقة في جلب الخير إليه بحسب الإمكان**».



سلطان العلماء!

(٢٥٨): «عبد الله بن الحسن اليماني الصَّعدي الزَّيدي...

وكان الطلبة للفنون العلمية يرحلون إليه ويتنافسون في الأخذ عنه، وليس لأحد من علماء عصره ما له من تلامذة وقبول الكلمة وارتفاع الذكر وعظم الجاه، بحيث كان يتوقف الناس عن مبايعة الأئمة حتىٰ يحضر، كما اتفق عند دعوة الإمام المهدي أحمد بن يحيىٰ -المتقدم ذكره- ومعارضة المنصور بالله علي بن صلاح، فإن أمراء الدولة أرسلوا له من صنعاء إلىٰ صعدة وتوقف الأمر حتىٰ حضر وبعد حضوره وقع ما هو مشهور في السِّير، **ومع هذا فهو زاهد متقلل من الدنيا حتىٰ قيل أنه كان يستنفق من غلّات أموال حقيرة تركها له والده، وكان يحمل إليه غلّات أوقاف يصرفها في طلبة العلم**، وما زال ناشرًا للعلوم مكبًّا علىٰ التصانيف حتىٰ توفاه الله».

كسر الناموس!

(٢٦١): «عبد الله بن الإمام شرف الدين...

من العلماء المحققين في عدة فنون، وله مصنفات منها: شرح قصيدة والده المسماة «القصص الحق»، ذكر فيه فوائد جليلة، ومنها كتاب اعترض به علىٰ القاموس وسمَّاه: «كسر الناموس»، **واعتَرض عليه في هذه التسمية بأنَّها ليست لغوية بل عرفية**».



صورة العقل صورة الأدب!

(٢٦١): «عبد الله بن الإمام شرف الدين...

وله في الأدب يد طولىٰ، وشعره فائق منسجم جزل اللفظ رائق المعنىٰ، فمنه:

ناصـــيةُ الخيـــرِ في يــــدِ الأدَبِ ... وســـــرّهُ في قــــرائح العــــرَبِ
فـاعكفْ علىٰ النحـوِ والبلاغـةِ والآ ... دابِ تظفـــرْ بــــأرفع الرتَـــــبِ
وتعــرفُ القصــدَ في الكتــابِ وفي ... السُّـنةِ مـنْ وحـي خيـرِ كـلِّ نبـيْ
بقـــدرِ عقـــلِ الفتـــىٰ تأدبُـــهُ ... وصـــورةُ العقــل صـــورةُ الأدَبِ

تألم الشوكاني من الغزو الصليبي لبلاد مصر

(٢٦٥) غالب بن مساعد، شريف مكة وأميرها...

«ومما ينبغي ذِكُره ههنا أنه وصل من الشريف المذكور في عام تحرير هذا الأحرف وهو سنة (١٢١٣)، في شهر رجب منها كتاب إلىٰ مولانا خليفة العصر المنصور بالله علي بن العباس -حفظه الله- يتضمن **الإخبار بالرَّزِّية العُظمىٰ والمُصيبة الكبرىٰ والبلية التىٰ تَبكي لها عيون الإسلام والمسلمين**، وهي: استيلاء طائفة من الفِرنج يقال لهم: (الفرنسيس)[١] علىٰ الديار المصرية جميعها، ووصولهم إلىٰ القاهرة، وحكمهم علىٰ من بتلك الديار مِن المسلمين، **وهذا**

---

(١) سُئِل العلامة المجاهد عبد الحميد بن باديس عن كلمة (فِرنسا) هل هي بالفتح أم بالكسر؟

فقال: «اكسروها، كسرها الله»، أي: فِرنسا!.

وقال العلامة البشير الإبراهيمي: «علموا أبناءكم أن كُره فِرنسا عقيدة».



خطب لم يُصب الإسلام بمثله؛ فإنَّ مصر ما زالت بأيدي المسلمين منذ فتحت، في زمن عمر بن الخطاب ﵁ إلىٰ الآن، ولم نَجد في شيء من الكتب التاريخية ما يدل علىٰ أنه قد دَخل مدينة مصر دولةٌ كفريةٌ، والإفرنج الذين وصلوا إليها في أيام العاضد ووزيره شاوور، وكذلك الذين وصلوا إليها في دولة بني أيوب لم يدخلوا مدينة مصر، بل غاية ما بلغوا إليه (دمياط) ونحوها، وما زالت تلك المدينة وسائر بلادها محروسة عن الدول الكفرية؛ فإنَّ التتار دَوَّخُوا جميع بلاد الإسلام، ولم يسلطهم الله علىٰ مصر، بل عادوا عنها خائبين مقهورين مهزومين، وكذلك (تيمورلنك) -مع تدويخه لسائر الممالك- لم يُسلط عليهم، والله ينصر الإسلام وأهله».

دعه يسبني كيف شاء!

(٢٦٧): «عبد الله بن لطف الباري الكِبْسي ثم الصنْعاني...

وكان زاهدًا متقللًا من الدنيا آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، وله في ذلك مقامات جليلة... وله في نَهي المنكر عناية عظيمة؛ أخبرني بعض الثقات أنه مشىٰ معه في بعض شوارع صنعاء فرأىٰ رجلًا جنديًا وقد أراد الفاحشة من امرأة أو صار يفعل الفاحشة بِها، ففرَّق صاحب الترجمة بينهما فسبّه ذلك الجندي سبًا فظيعًا فمرَّ ولم يلتفت إلىٰ ذلك، فقال له الذي كان معه: لو تدعني أعرف هذا الجندي حتىٰ ترفع أمره إلىٰ الدولة ليعاقبوه، فقال: الذي وجب علينا من إنكار المنكر قد فعلناه لله، ولا أريد أن أفعل شيئًا لنفسي، **دعه يسبني كيف شاء**، وكان لا يسمع بمنكر إلا أتعب نفسه في القيام علىٰ صاحبه حتىٰ يُزيله، وإذا أصيب رجل بمظلمة

فرَّ إليه فيقوم معه قومةً صادقةً حتىٰ ينصف له، فرحمه الله وكافأه بالحسنىٰ! فلقد كان من محاسن الدهر وما زال كذلك حتىٰ توفاه الله».

مِحنُ الزمن شأن أرباب الفضائل!

(٢٦٩): «عبد الله بن محسن الحَيْمي ثم الصنْعاني...

واستفاد في عدة فنون ودرس في كثير منها، ونقل كثيرًا من رسائلي وما زال ملازمًا لي في كثير من الأوقات، وبيني وبينه صداقة خالصة ومحبة صحيحة، ولم يسلم من التعصبات عليه من جماعة من الجهال حتىٰ جرت له بسبب ذلك محن وهو صابر محتسب، وهذا شأن هذه الديار وأهلها، **والعالم المصنف في غربة لا يزال يكابد شدائد ويجاهد واحدًا بعد واحد**، ولله الأمر من قبل ومن بعد، وإنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب».

(٥٩٤): «يوسف بن علي بن الهادي الكوْكباني ثم الصنْعاني، القاضي الأديب الشاعر المجيد، مصنف «طوقُ الصادح المفصّلُ بجوهرِ البيانِ الواضح»، ترجم فيه لكل من شعر في الحمامة وجعله مسجعًا بسجع غالبه البلاغة والجودة، ومن تصانيفه «سوانح فِكَر الأفهام وبوارح فِقَر الأقلام»، وله قصيدة همزية سماها «البغيةُ المقصودة في السيرةِ المحمودة»، وله ديوان شعر سماه «محاسن يوسف»، **وقد جرت له محن مع أهل عصره؛ لأنه برع في الأدب وفاق الأقران، وهذا شأن من نبُل من نوع الإنسان**، وحبس مرارًا، وسافر مع بعض الأمراء إلىٰ زبيد فجرىٰ بينه وبينه مراجعة في الكلام حتىٰ أمر بقتله ثم شفّع فيه وحبس فمرض غيظًا وكمدًا وشارف الموت فأُطلق وحُمل علىٰ حمار فسقط من فوقه حتىٰ انكسرت إحدىٰ



يديه تمامًا للامتحان وتجلد حتىٰ وصل إلىٰ بيته فمات، ومن نظمه القصيدة التي يقول فيها:

فلَـــقُ الأمــــانيْ قــــدْ تـــبَلّجْ	وشـــذىٰ المســـرّةِ قـــدْ تـــأَرّجْ
والـــدهرُ قـــدْ وهـــبَ الحبـــورَ	وهـــبّ روحُ رضـــاهُ سَجْسَـــجْ
وأتـــىٰ الربيـــعُ يجـــرُّ فضـــ	ـــلَ مروطِـــهِ لمّـــا تـــبرّجْ
فتزخرفـــتْ لقدومـــه الـــدّ	نيـــا فمـــا أبهـــىٰ وأبهـــجْ
والجــــوُّ أصــــبح لازَوَرْ	ديَّ المطـــارفِ لـــم يُضَـــرّجْ
والـــــروضُ زاهٍ زاهـــــرٌ	خضـــرٌ ملابســـهُ مُزبْـــرَجْ

وهذه قصيدة طويلة كلها غرر، **وشعره في الذروة وإن أنكر فضله حاسد وجحد مناقبه جاحد**».

ومحبة للفقراء وعناية في إيصال الخير اليهم بكل ممكن!

(٢٧١): «عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن صلاح الأمير الصنْعاني...

وبرع في النحو والصرف والمعاني والبيان والأصول والحديث والتفسير، وهو أحد علماء العصر المفيدين العاملين بالأدلة الراغبين عن التقليد، مع قوة ذهن وجودة فهم ووفارة ذكاء وحسن تعبير وخبرة لمسالك الاستدلال، **ومحبة للفقراء وعناية في إيصال الخير إليهم بكل ممكن**، ومتانة دين واشتغال بالعبادة، ولا شغلة له بغير العلم والإكباب علىٰ كتب الحديث وتحرير مسائله وتقرير دلائله».

أول من أدخل كتاب «مغني اللبيب» إلى اليمن!

(٢٧٢): «عبد الله بن محمد بن أبي القاسم المعروف بالنَّجْري...

ثم حج سنة (٨٣٨)، وارتحل إلىٰ الديار المصرية فوصلها في ربيع الأول من التي يليها فبحث فيها في النحو والصرف علىٰ ابن قديد وأبي القاسم النّويري، وفي المعاني والبيان علىٰ الشُّمُني، وفي المنطق علىٰ التقي الحصني، وفي علم الوقت علىٰ العز عبدالعزيز الميقاتي، وحضر في الهندسة قليلًا عند أبي الفضل المغربي، بل كان يطالع ومهما أشكل يراجعه فيه فطالع شرح الشريف الجرجاني علىٰ الجغميني والتبصرة لجابر بن أفلح، وقرأ في الفقه علىٰ الأمين الأقصراني والعضد الصيرامي، وتقدم في غالب هذه الفنون كما قال البقاعي -المتقدم ذكره- قال: واشتهر فضله وبعد صيته، وكتب عنه في سنة (٨٥٣) قوله:

بشاطئِ حوثٍ من ديارِ بني حرْبِ ... لقلبيَ أشجانٌ معذبةٌ قلبيْ

فهل لي إلىٰ تلكَ المنازلِ عودةٌ ... فيفرجُ من غمي ويكشفُ من كربيْ

وتستَّر مدة بقائه هنالك فلم ينتسب زيديًّا بل انتسب حنفيًّا، ولهذا ترجمه البقاعي والسخاوي فقال: الحنفي، ثم عاد إلىٰ اليمن وصنف مصنفات منها «المعيار في المناسبات بين القواعد الفقهية» جعله علىٰ نمط قواعد ابن عبد السلام وهو كتاب نفيس مفيد، ومنها «شرح آيات الأحكام» اختصره من الثمرات، ومنها «شرح مقدمة البحر للإمام المهدي»، وله مصنفات في غير ذلك، ومن جملة ما كتبه وهو بمصر إلىٰ والده:

فراقكَ غُصّتي ولقاكَ رُوحيْ ... وقربكَ لي شفاءٌ منْ قُروحِي

ومـــا أنْ أذكـــرَ الأوطـــانَ إلا يضـيقُ لـي مـنَ الأوطـانِ سُـوحي
فعفـــوكَ والـــديْ عنّـــي وإلا فنُـوحي يـا عيـون علـيَّ نُـوحي

وهؤلاء المشايخ من المصريين المذكورين في الترجمة هم أكابر شيوخ مصر في ذلك الزمن كما يفيد ذلك من ترجم لهم، ولعل بقاءه في مصر خمس سنين كما يدل عليه ما سلف ويمكن أن يكون أكثر من ذلك، **وخرج من مصر بـ«مغني اللبيب» وهو أول من وصل به إلىٰ اليمن»**.

حفظ اللسان كرامة!

(٢٧٣): «عبد الله بن محمد بن عبد الله العنْسي ثم الصنْعاني...

وله في الصلاح والعبادة والعمل بالأدلة مسلَك حسن، **وله في حسن الخلق والتودُّد وحفظ اللسان ما لا يقدر عليه إلا من هو مثله»**.

ورع وكياسة!

(٢٧٥): «عبد الله بن المُهَلّا بن سعيد بن علي الشَّرَفي اليماني المعروف بالمُهَلّا...

برع في جميع العلوم وفاق الأقران ورحل إليه طلبة العلم من الآفاق، ومن جملة تلامذته الإمام القاسم بن محمد، واتفق أن الباشا جعفر امتَحن العلماء بحديث اختلقه ونمَّق ألفاظه وأملاه عليهم، فابتدر الحاضرون لكتابته، فلم يتحرك صاحب الترجمة لشيء من ذلك، فسأل الباشا: لمَ لا يكتب؟ فقال: يا مولانا قد أفدتم والجماعة قد كتبوا ونحن حفظنا، فقال: هذا والله هو العالم، ثم أخبرهم أن الحديث هو الذي وضعه وإنما أراد امتحانَهم».

مِن مُفسدات الإخلاص الخفية!

(٢٧٦): «عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن هشام...

أتقن العربية ففاق الأقران ولم يبق له نظير فيها، وصنف «مغني اللبيب» وهو كتاب لم يؤلف في بابه مثله واشتهر في حياته... وكان كثير المخالفة لأبي حيان شديد الانحراف عنه؛ ولعل ذلك -والله أعلم- لكون أبي حيان كان منفردًا بِهذا الفن في ذلك العصر غير مُدافَع عن السبق فيه، ثم كان المنفرد بعده هو صاحب الترجمة **وكثيرًا ما ينافس الرجل من كان قبله في رتبته التي صار إليها**؛ إظهارًا لفضل نفسه بالاقتدار علىٰ مزاحمته لمن كان قبله أو بالتمكن من البلوغ إلىٰ ما لم يبلغ إليه، وإلا فأبو حيان هو من التمكن من هذا الفن بمكان ولم يكن للمتأخرين مثله ومثل صاحب الترجمة، وهكذا نافس أبو حيان الزمخشري فأكثر من الاعتراض عليه في: «البحر» و«النهر الماد»؛ لكون الزمخشري ممن تفرد بِهذا الشأن وإن لم يكن عصره متصلًا بعصره، **وهذه دقيقة ينبغي لمن أراد إخلاص العمل أن يتنبه لها؛ فإنَّها كثيرة الوقوع بعيدة الإخلاص**».

صفح عن خصومه وهو قادر!

(٢٨٧): «عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السُّبْكي...

وانتهت إليه رياسة القضاء والمناصب بالشام، وحصل له بسبب القضاء محنة بعد محنة وهو مع ذلك في غاية الثبات، وعُزل مرات وكشفوا عليه في بعضها وحكم بعض القضاة بحبسه واجتهدوا في طلب غيره من عثراته فلم يجدوا، قال



ابن كثير: جرىٰ عليه من المحن والشدائد ما لم يجر علىٰ قاضٍ قبله، وحصل له من المناصب والرياسة ما لم يحصل لأحدٍ قبله، وانتهت إليه الرياسة بالشام وأبان في أيام محنته عن شجاعة وقوة مناظرة حتىٰ أفحم خصومه مع كثرتهم، **ولما عاد علىٰ وظائفه صفح عن القائمين عليه**».

المناصب منشأ العداوة!

(٢٩٤): «علي بن إبراهيم بن علي بن إبراهيم بن أحمد بن عامر الشهيد... وكان إمامًا في جميع العلوم محققًا لكل فن، ذا سكينة ووقار قل أن يوجد له نظير في ذلك، كان إذا اجتمع بأهل العلم وجرت المباحثة في فن من فنون العلم لا يتكلم قط بل ينظر إليهم ساكتًا فيرجعون إليه بعد ذلك فيتكلم بكلام يقبله الجميع ويقنع به كل سامع، وكان هذا دأبه علىٰ مرور الأيام لا يعتريه الطيش والخفَّة في شيء كائنًا ما كان، ولا يوجد له عدو قط؛ لحفظ لسانه والتفاته إلىٰ ما يعنيه، وعدم اشتغاله بما لا يعنيه، مع كونه غير متعلق **بالمناصب الدنيوية التي هي منشأ العداوة إما لحسدٍ أو لغيرةٍ**، فلهذا كان الثناء عليه كلمة إجماع والاعتراف بفضله ليس فيه نزاع».

لم يغضب على أحد أو يخاصمه قط!

(٢٩٤): «علي بن إبراهيم الشهيد...

وكان يسلك هذا المسلك مع أهله وأولاده فإنَّهم إذا وقع لهم السهو عن شيء مما يحتاج إليه من طعام أو شراب أو نحوهما لم يقع منه الطلب لذلك منهم فضلًا عن أن يتجرد عليهم ويلومهم، ولقد أخبرني أنه خرج يومًا مع جنازة وقت الغداء وما رجع إلا قبل الظهر فظن أهله أنه قد تغدّىٰ؛ لأنه كان كثير الضيافات عند معارفه، فوصل إلىٰ مكانه واستمر جالسًا إلىٰ وقت العشاء لم يطلب منهم شيئًا، ومثل هذا عجيب!

وأخبرني أنه دخل ليلةً منزله ووقف في المكان الذي يأوي إليه ولم يشعر أهله بذلك، فبقي إلىٰ مقدار نصف الليل في ظلمة بلا مصباح ولا قهوة ولا غير ذلك مما يحتاج إليه في السَّمر مع أنه كان محبًا للسَّمر، وإذا كانت هذه معاملته لأهله فما ظنك بمعاملته لغيرهم، **ولا أعلم أنه غضب قط أو خاصم في شيء منذ عرفته إلىٰ أن مات!**».

يُشعِرُ سامعيه بجديد ما أسمعوه ولا يعترض إلا أن يُسأل!

(٢٩٤): «علي بن إبراهيم الشهيد...

وليس له نظير في حفظ الأشعار لأهل الجاهلية والإسلام، وحفظ الأخبار التي لا يدري بشيء منها غالب أهل العصر، ومع هذا فإنه يحضر مواقف الاجتماع **فيتحدث متحدث بخبر من الأخبار فيزيد وينقص ويغلط ويصحف ويحرف وهو مُصغٍ إليه مُقبلٌ عليه؛ كأنه لا يعرف من ذلك شيئًا، فإذا فرغ ذلك المتحدث من حديثه استحسنه صاحب الترجمة وسكت ولا يَستدرك عليه في شيء مع أنه يعلم بتفصيل ذلك الخبر وصحيحه وفاسده، اللهم إلا أن يسأله سائل عن تلك الحكاية أو يسترشد منه الحاكي فإنه حينئذ يُمليها بعبارة عذبة ويصوغها بألفاظ فصيحة،** وإذا كانت مشتملة علىٰ شيء من الشعر ذكره لا يغادر منه شيئًا حتىٰ يُخجل حاكي تلك القضية ويندم علىٰ إقدامه، وهكذا إذا روىٰ أحدُ مَن هو بحضرته شيئًا من الشعر أصغىٰ إليه، وقد لا يدري ذلك الراوي لِمن الشعر، وقد يُصحِّفُ في بعضه، وقد لا يحفظ إلا شيئًا يسيرًا من القصيدة، وصاحب الترجمة ساكت لا يتكلم، فإذا سأله سائل عن ذلك روىٰ تلك القصيدة من أولها إلىٰ آخرها، وذكر السبب الذي قيلت لأجله، وترجم لقائلها ترجمة لا يدع من أحواله شيئًا، وقل أن يجري بحضرته شيء لا يعرفه، وهو قليل التكلف مائل إلىٰ الخمول ليس له رغبة في الظهور **ولا يتكلم في مسألة إلا وهو علىٰ قدمٍ راسخةٍ وإلارجع إلىٰ البحث،** بل كثيرًا ما يرجع إلىٰ البحث وإن كان يعلم بالمسألة».

وصف بديع للبنادق!

(٢٩٤): «علي بن إبراهيم عامر الشهيد...

وكان للعصر به جمال وللعلم وأهله به أُنس، وله في الشعر يد طولىٰ وقصائده الطنانة موجودة بأيدي الناس، فمن شعره في وصف «البنادق» من جملة قصيدة:

فـــواغرُ أفـــواهِ الثعـــابينِ كلَّمـــا نفخـــنَ قَتامًـــا تُســـتطارُ مَشـــاعلُ

حكىٰ شكلَّها الحياتِ لكـنْ صـفيرُها زئيـرٌ وفي الأحشـاءِ منْهـا الغوائـلُ

كراســـيُّها أذنابُهـــا وعيونُهـــا وراءٌ ولا يَخفـىٰ عليهـا المقاتِـلُ

ولولم يكن له إلا هذه الأبيات لكفتْه فإنَّها غاية لا تُدرك، وهي تدل علىٰ ما وراءها من أدبه الغضّ».

قاعدة في إنجاز الأعمال!

(٢٩٤): «علي بن إبراهيم الشهيد...

ولم يشتغل ﵀ بالتأليف مع أنه أهلٌ له ولو وجَّه نفسه إليه لجاء بما يعجز عنه غيره؛ ولعل السبب في ذلك محبته للخمول حيًّا وميتًا، وكتب من نفايس الكتب بخطه شيئًا كثيرًا، وكنت أعجب من سرعة ما يتحصل له من ذلك مع شغلته بالتدريس فسألته بعض الأيام عن هذا فقال: **إنه لا يترك النسخ يومًا واحدًا، وإذا عرض ما يمنع فعلَ من النسخ شيئًا يسيرًا ولو سطرًا أو سطرين، فلزمتُ قاعدته هذه فرأيتُ في ذلك منفعة عظيمة»**.



انصرف ندمان لوجود ندمانة!

(٢٩٤): «علي بن إبراهيم عامر الشهيد...

وكان له لطائف وظرائف وكلمات مستحسنة، منها: أنه كان بعض أبناء الأكابر يتصل به ويقرأ عليه ويديم الجلوس معه، وهو فائق الجمال بديع الأوصاف فتزوج وانقطع عنه، فقيل له في ذلك، فقال: انصرف ندمانٌ لوجود ندْمانة!

فتمت له الإشارة إلىٰ الواقع مع مراعاة التوجيه بالقاعدة النحوية علىٰ أحسن أسلوب».

احتسابٌ على الغيبة والنميمة!

(٢٩٥): «علي بن إبراهيم بن محمد بن إسماعيل بن صلاح الأمير...

وله فصاحة وبراعة وقوة نفس وعفة، وإنكار للمنكر بما يستطيعه وتبلغ إليه قدرته، وكثيرًا ما يصل إليّ إذا حدَث شيء من ذلك ولا يزال حتىٰ أساعده علىٰ القيام في دفع ذلك الحادث، وأحواله كلها حسنة، **وله في الذب عن الغيبة والنميمة غايةٌ كاملةٌ لا يدع أحدًا يَذكر أحدًا بسوء في مجلسه**، وله أذكار وصبر علىٰ تعليم العامة ما يُهمم من أمر دينهم، وهو الآن مستمر علىٰ هذه الأحوال الجميلة».

ثلاثين سنة يُصلي الصبح جماعة على قَدَمٍ واحدة!

(٣٠٥): «علي بن إسماعيل بن يوسف القونويُّ علاء الدين الشافعي...

وأقام علىٰ قدم واحد ثلاثين سنة يصلي الصبح جماعة، ثم يقرأ إلىٰ الظهر ثم يصليها، ويأكل في بيته شيئًا ثم يتوجه إلىٰ زيارة صاحب أو عيادة مريض أو شفاعة أو تَهنية أو تعزية، ثم يرجع ويشتغل بالذكر إلىٰ آخر النهار».

تلك شكاة ظاهر عنك عارها!

(٣٠٩): «الشيخ مُلّا علي قاري بن سلطان بن محمد الهرَوي الحنَفي...

ولد بـ (هَراة) ورحل إلىٰ مكة واستقر بِها، وأخذ عن جماعة من المحققين كابن حجر الهيتمي، وله مصنفات منها «شرح المشكاة»، و«شرح الشمائل»، و«شرح الوترية»، و«شرح الجزرية»، و«شرح النخبة»، و«شرح الشفاء»، و«شرح الشاطبية»، ولخص «القاموس» وسماه «الناموس»، وله «الثمار الجنيّة في أسماء الحنفيّة»، وله غير ذلك. قال العصامي في وصفه: الجامع للعلوم النقلية والعقلية والمتضلع من السنة النبوية، أحد جماهير الأعلام مشاهير أولي الحفظ والأفهام، ثم قال: لكنه امتحن بالاعتراض علىٰ الأئمة لاسيما الشافعي وأصحابه، واعترض علىٰ الإمام مالك في إرسال يديه، ولهذا تجد مؤلفاته ليس عليها نور العلم، ومن ثمّةَ نَهىٰ عن مطالعتها كثير من العلماء والأولياء.اهـ

وأقول: هذا دليل علىٰ علو منزلته؛ فإن المجتهد شأنه أن يبين ما يخالف الأدلة الصحيحة ويعترضه سواء كان قائله عظيمًا أو حقيرًا، وتلك شَكاةٌ ظاهر عنك عارُها».



الناس ثلاث طبقات!

(٣٢٠): «علي بن قاسم حنش، ولد في شهر محرم سنة (١١٤٣) ثلاث وأربعين ومئة وألف، ونشأ بوطنه (ذي بين) ثم ارتحل إلىٰ (كوكبان) وقرأ علىٰ علمائها ثم وصل إلىٰ صنعاء وأخذ عن أهلها، وتردد في الديار اليمنية حتىٰ عرف أكثرها أو كلها واختبر بأهلها خاصتهم وعامتهم، وحج وعاد ووصل إلىٰ صنعاء...

وهو من نوادر الدهر في جميع أوصافه لا يخفىٰ عليه من أحوال أبناء دهره خافية ولا يسمع متكلم يتكلم في علم أو أدب أو تاريخ من تقدم أو تأخر إلا ويجري معه ويحكي مثل حكايته، وله في العلم حظ وافر وفي الأدب سهم قامِر، وفيه كرم مفرط يجود بموجوده مع قلة ذات يده، وقد يتصدق في بعض أوقاته بثيابه ولا يمسك شيئًا، وقد كان يصل إليه عند اتصاله بالإمام المهدي شيء واسع فينفقه ولا يدِّخر منه شيئًا، وهو من رجال الدهر قد حنَّكته التجارب وحلَبَ الدهرُ أَشْطُرَه، ومارس مالم يمارسه غيره من محبوب ومكروه وصديق وعدو وشدة ورخاء، وهو أسرع الناس جوابًا في كل ما يرِد عليه لا يعجم ولا يتلعثم ولا يعتريه خَور، وكثيرًا ما يتفرَّس في الحوادث قُبيل وقوعها فيتفق وقوعها في الغالب كما يَحْدس، وله اتصال بأكابر الناس وأصاغرهم قد استوت لديه طبقاُتهم كما استوت لديه الشدة والرخاء والإقبال والإدبار والمحبوب والمكروه، قد رأىٰ نفسه أميرًا كما رآها فقيرًا ورآها تارة في اليَفاع وتارة في أخفض البِقاع، وهو الآن في الحياة قد جاوز السبعين ولم يفتر نشاطه ولا خف ضبطه ولا تكدرت أخلاقه، وبالجملة فهو قليل النظير في مجموعه.

ومن محاسن كلامه الذي سمعته منه: **الناس علىٰ طبقات ثلاث:**

فالطبقة العالية: العلماء الأكابر -وهم يعرفون الحق والباطل وإن اختلفوا لم ينشأ عن اختلافهم الفتن لعلمهم بما عند بعضهم بعضًا.

والطبقة السافلة: عامة علىٰ الفطرة لا ينفرون عن الحق -وهم أتباع من يقتدون به إن كان محقًا كانوا مثله وإن كان مبطلًا كانوا كذلك.

والطبقة المتوسطة: هي منشأ الشر وأصل الفتن الناشئة في الدين -وهم الذين لم يُمْعنوا في العلم حتىٰ يرتقوا إلىٰ رتبة الطبقة الأولىٰ ولا تركوه حتىٰ يكونوا من أهل الطبقة السافلة؛ فإنَّهم إذا رأوا أحدًا من أهل الطبقة العليا يقول ما لا يعرفونه مما يخالف عقائدهم التي أوقعهم فيها القصور فوَّقوا إليه سهام الترقيع ونسبوه إلىٰ كل قول شنيع، وغيَّروا فِطَرَ أهل الطبقة السُّفلىٰ عن قبول الحق بتمويهات باطلة؛ فعند ذلك تقوم الفتن الدينية علىٰ ساق.

هذا معنىٰ كلامه الذي سمعناه منه، وقد صدق؛ فإن من تأمل ذلك وجده كذلك».

نسب اليمن إلى قحطان بن هود عليه السلام

(٣٢٥): «علي بن محمد الشَّوكاني...

ولا شك أن قول من زعم أن قحطان ليس هو ابن هود مخالف للصواب، ولما أَطبق الناس عليه قديمًا وحديثًا حتىٰ ذُكر ذلك في الأشعار، كما قال بعض القحطانية يفتخر علىٰ بعض العدنانية:

أبونـــا نبـــيُّ اللهِ هـــودُ بـــنُ عـــابرٍ فهـــا نحـــنُ أبنـــاءُ النبـــيِّ المطهَّـــرِ



ملكْنـــا بـــلادَ اللهِ شـــرقًا ومغربًـــا　　　　ومفخرُنـــا يســـمو علـــىٰ كـــلِّ مَفْخَـــرِ

استمر في القضاء أربعين سنة وهو لا يملك بيتًا يسكنه!

(٣٢٥): «علي بن محمد الشَّوكاني...

وكان ﷺ محمود السيرة والسريرة، متعففًا قانعًا باليسير طارحًا للتكلف، مُنْجمعًا عن الناس مشتغلًا بخاصة نفسه، صابرًا علىٰ نوائب الزمن وحوادث الدهر مع كثرة ما يطرقه من ذلك، محافظًا علىٰ أمور دينه مواظبًا علىٰ الطاعة، مؤاثر للفقراء بما يفْضُل عن كفايته، غير متصنِّع في كلامه ولا في ملبسه لا يبالي بأي ثوب برَزَ للناس ولا في أي هيئة لقيهم، **وكان سليم الصدر لا يعتريه غِل ولا حقد ولا سخط ولا حسد، ولا يذكر أحدًا بسوء كائنًا من كان**، محسنًا إلىٰ أهله قائمًا بما يحتاجونه متعبًا نفسه في ذلك، صابرًا محتسبًا لما كان يجري عليه من بعض القضاة الذين لهم كلمة مقبولة وصولة مع كونه مظلومًا في جميع ما يناله من المحن ونوائب الزمن، **والحاصل أنه علىٰ نمط السلف الصالح في جميع أحواله**.

ولقد كان -تغَشّاه الله تعالىٰ برحمته ورضوانه- من عجائب الزمن، **ومن عرفه حق المعرفة تيقَّن أنه من أولياء الله**.

ولقد بلغ معي إلىٰ حد من البر والشفقة والإعانة علىٰ طلب العلم والقيام بما أحتاج إليه مبلغًا عظيمًا بحيث لم يكن لي شغلة بغير الطلب، فجزاه الله خيرًا وكافأه بالحسنىٰ!

وهو زاهد من الدنيا ليس له نَهمة في جمع ولا كسب بل غاية مقصوده منها ما يقوم بكفاية أرحامه، **فإنه استمر في القضاء أربعين سنة وهو لا يملك بيتًا يسكنه!**

فضلًا عن غير ذلك، بل باع بعض ما تلقّاه ميراثًا من أبيه من أموال يسيرة في وطنه، ولم يترك عند موته إلا أشياء لا مقدار لها...

ولم يزل مستمرًّا علىٰ حاله الجميل معرضًا عن القال والقيل ماشيًا علىٰ أهدىٰ سبيل حتىٰ توفاه الله تعالىٰ...

ولم يباشر شيئًا مما يتعلق بالقضاء قبل موته بنحو سنتين بل تجرد للاشتغال بالطاعة والمواظبة علىٰ الجمعة والجماعة، ولم يكن له التفات إلىٰ غير أعمال الآخرة».

عاش تحت الأرض ست سنوات في ظل صدقته!

(٣٣٣): «علي بن محمد بن أحمد بن علي بن يحيىٰ البكْري، أحد العلماء اليمنيين المحقّقين...

قال صاحب «مطلع البدور»: وهو الذي حكىٰ صفة الكتاب الواصل إلىٰ الإمام المطهر من الفقيه محمد بن الأصَم أنَّها اتفقت في زمن الإمام المذكور قصة عجيبة ونكتة غريبة في بلدٍ شاميِّ الحَرَجة تسمىٰ «الحمرة»، وذلك أنه كان فيها رجل من الزَّرَعة وكان ذا دين وصَدَقة فاتفق أنه بنىٰ مسجدًا يُصلي فيه، وجعل يأتي ذلك المسجد كل ليلة بالسراج وبعشائه، فإن وجد في المسجد من يتصدق عليه أعطاه ذلك العشاء، وإلا أكله وصلىٰ صلاته، واستمر علىٰ ذلك الحال، ثم إنَّها اتفقت شدة ونضبَ ماء الآبار وكانت له بير فلما قلَّ ماؤها أخذ يحتفرها هو وأولاده فخربت تلك البير والرجل في أسفلها خرابًا عظيمًا حتىٰ إنه سقط ما حولها من الأرض إليها، فأيس منه أولاده ولم يحفروا له وقالوا: قد صار هذا قبره.



وكان ذلك الرجل عند خراب البئر في كهف فيها فوقعت إلىٰ بابه خشبة منعت الحجارة من أن تصيبه، **فأقام في ظلمة عظيمة**، ثم إنه بعد ذلك جاءه السراج الذي كان يحمله إلىٰ المسجد وذلك الطعام الذي كان يحمله كل ليلة وكان به يفرق ما بين الليل والنهار!

واستمر له ذلك مدة ست سنين، والرجل مقيم في ذلك المكان علىٰ تلك الحال، ثم إنه بدا لأولاده أن يحفروا البئر لإعادة عمارتِها فحفروها حتىٰ انتهوا إلىٰ أسفلها فوجدوا أباهم حيًّا! فسألوه عن حاله فقال لهم: ذلك السراج والطعام الذي كنت أحمل إلىٰ المسجد يأتيني علىٰ ما كنتُ أحمله تلك المدة!

فعجبوا من ذلك، فصارت قضية موعظة يتوعظ بِها الناس في أسواق تلك البلاد، وقال في «مطلع البدور»: ومن جملة من زار هذا الرجل محمد بن الأصَم».

غربة العالم في بلده!

(٣٣٤): «علي بن محمد المعروف بابن هُطَيل النَّحوي المشهور اليماني، صاحب التصانيف كـ «شرحه للمفصَّل» وله «شرح علىٰ الظاهرية» صنفه للإمام المنصور علي بن صلاح الدين المتقدم ذكره، وكان ساكنًا بصنعاء وقد طار صيته في الآفاق، وكان مُديمًا لمطالعة «شرح الرضي» علىٰ «كافية ابن الحاجب» لا يفارقه في غالب أوقاته، ويحكىٰ أنه لما حضرته الوفاة أمر من يدفع إليه شرح الرضي فدفعه إليه فوضعه علىٰ صدره ثم أنشد:

تمتـعْ مـنْ شـميمِ عَـرارِ نجـدٍ ... فمـا بعـدَ العشـيةِ مِـنْ عَـرارِ

ويُحكىٰ عنه أنه دخل مكة للحج فأُخبر أن قاضيَ المَحْمل الشامي من أكابر العلماء فتلقاه إلىٰ الطريق، ووجده في محمل فناداه وقال: مسألة أيها القاضي؟ فكشف عن المحمل، وقال: قل، فسأله كذلك وأجاب بجواب حسن، ثم سأله بمسألة ثانية كذلك وأجاب بجواب أحسن، وقال له: لعلك من اليمن؟ قال: نعم، قال: أنت من صنعاء؟ قال: نعم، قال: أنت ابن هُطيل؟ قال: نعم، قال: قد ألَّفتَ كذا وكذا؟ قال: نعم، وما يدريك بِهذا؛ فإن جيران داري لعلهم لا يعرفون ذلك؟ فقال له: **أنتم يا علماء صنعاء وضعتم أنفسكم بالسُّكون فيها في مَضْيعة**».

كثرة الغياب عن التدريس من موانع العلم!

(٣٣٩): «علي بن هادي عَرْهَب، الصنعاني المولد والدار والمنشأ، أحد علماء العصر المشاهير...

ولصاحب الترجمة في قوة الفهم وسرعة الإدراك وتحقيق المباحث الدقيقة ما لا يوجد لغيره، **ولكنه كثير العوارض الموجبة لانقطاع التدريس، ولولا ذلك لعكف الطلبة عليه وفاق معاصريه وصار متفردًا برياسة التدريس**، ولكن العلم تكثر موانعه...

ثم في شهر رمضان سنة (١٢١٤) وصلت مكاتبة من أمير كوكبان السيد الأجل شرف الدين بن أحمد بن محمد يتضمن أن كوكبان وجهاته يحتاج إلىٰ عالم من أكابر علماء صنعاء للإحياء بالتدريس وللقيام بعهد القضاء هنالك، **فأرسلتُ بصاحب الترجمة وهو إلىٰ الآن هنالك**».

لو اتسع ماله لزاحم البرامكة في الجود والكرم!

(٣٤٠): «علي بن يحيىٰ بن علي بن راجح بن سعيد الكَيْنعي...

وهو من الأجواد الذين ينفقون أموالهم في وجوه الخير فإنه مع قلة ذات يده يجود بموجوده ويؤثر علىٰ نفسه، وقد رأيت من مكارمه ما لا يقدر عليه غيره وهو في هذا الشأن من محاسن الزمان، **ولو اتسع نطاق مالِه لطار له من الذكر واشتهر له من الصيت ما يزاحم به البرامكة فضلًا عمن هو دونهم**، ولكنه يؤثر الخمول ويميل إلىٰ القُنوع من الدنيا بالبُلغة ونعمت الخَصلة، وما أحقه بما قلته من أبيات:

تــراهُ وهــو ذو طِمْــرينِ يمشــي ... بهمتــهِ علــىٰ هــامِ السِّــماكِ

وهو حال تحرير هذه الأحرف حي، ومنزله نزهة أرباب الألباب وحديثه روح أرواح بني الآداب».

متعة القراءة!

(٣٤١): «علي بن يحيىٰ بن أحمد بن مضمون البَرَطي ثم الصنعاني، العالم الكبير المشهور بالتحقيق في أنواع من العلوم، وكان له بالعلم شغف شديد حتىٰ قيل إنه **يقطع الليل جميعًا في المطالعة بمسجد البستان من صنعاء وإذا غلبه النوم اغتسل بالماء**».

ينبغي لمن كان له قبول عند السلاطين أن يتحيل عليهم في منافع المسلمين وحقن دمائهم بما أمكنه!

(٣٤٣): «علي بن يعقوب بن جبريل البكْري نور الدين المصري الشافعي...

جرت له محنة بسبب القبط؛ وهي أنه لما كان في النصف من محرم سنة (٧١٤) بلغه

أن النصارىٰ قد استعاروا من قناديل جامع عمرو بن العاص بمصر شيئًا وعلقوه بكنيسة، فأخذ معه طائفة كثيرة من الناس وهجم الكنيسة ونكَّلَ النصارىٰ وبلغ منهم مبلغًا عظيمًا، وعاد إلىٰ الجامع وأهان من فعل ذلك وكثر من الوقيعة في خطيبه، فبلغ السلطان فأمر بإحضار القضاة وفيهم ابن الوكيل وأُحضر صاحب الترجمة فتكلم ووعظ وذكر آيات من القرآن وأحاديث، واتفق أنه أغلظ في عبارة السلطان، ثم قال: أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، فاشتد غضب السلطان وقال له: أنا جائر؟ قال: نعم، أنت سلَّطت الأقباط علىٰ المسلمين وقوَّيت أمرهم، فلم يتمالك السلطان أن أخذ السيف وهم بالقيام ليضربه فبادر بعض الأمراء وأمسك يده، فالتفت إلىٰ قاضي المالكية وقال: يا قاضي تجرّأ عليَّ هذا ما الذي يجب عليه؟ فقال القاضي: لم يقل شيئًا يوجب عقوبة، فصاح السلطان بصاحب الترجمة وقال اخرج عني فقام وخرج، فقال ابن جَماعة: قد تجرأ وما بقي إلا أن يزاحم السلطان، فانزعج السلطان وقال: اقطعوا لسانه، فبادر الأمراء ليفعلوا به ذلك وأحضروا صاحب الترجمة، فارتعد وصاح واستغاث بالأمراء فرقوا له وألحو علىٰ السلطان في الشفاعة.

ودخل ابن الوكيل وهو ينتحب ويبكي فظن السلطان أنه أصابه شيء، فقال له: خير خير! فقال: هذا رجل عالم صالح لكنه ناشف الدماغ، قال: صدقت، وسكن غضبُه.

فانظر ما فعله ابن جَماعة بكلمته الحمقاء، وما فعله صدر الدين بن الوكيل -رحمه الله- من التوصل إلىٰ سلامة هذا المسكين؟!



وهكذا ينبغي لمن كان له قبول عند السلاطين أن يتحيل عليهم في منافع المسلمين وحقن دمائهم بما أمكنه؛ فإن صاحب الترجمة لم يكن ناشف الدماغ، ولكنه كان في هذه الوسيلة سلامتُه من تلك البلية».

مِن مساوئ تعدد التأليف!

(٣٤٦): «عمر بن رَسْلان السراج البُلْقيني...

بَهر الناس بحفظه وحسن عبارته وجودة معرفته، وخضع له الشيوخ في ذلك الوقت واعترفوا بفضله، ثم بعد ذلك تصدر للفتيا والتدريس فكثرت طلبته وصاروا شيوخًا في حياته، **وله تصانيف كثيرة لم تتم؛ لأنه يبتدئ كتابًا فيصنف منه قطعة ثم يتركه**... قال ابن حجر: ولم يكمل من مصنفاته إلا القليل؛ لأنه كان يشرع في الشيء فلسعة علمه يطول عليه الأمر، حتىٰ أنه كتب من شرح البخاري علىٰ نحو عشرين حديثًا مجلدين، وعلىٰ الروضة عدة مجلدات تعقبات، وعلىٰ البدر للزركشي مجلدًا ضخمًا».

مِن مداخل الشيطان على العالم إدخاله فيما لا يحسنه!

(٣٤٦): « عمر بن رَسْلان السراج البُلْقيني...

وقع الاتفاق علىٰ أنه أحفظ أهل عصره وأوسعهم معارفًا وأكثرهم علومًا، ومع هذا فكان يتعانىٰ نظمَ الشعر فيأتي بما يُستَحىٰ منه بل قد لا يقيم وزنه، والكمال لله...قال البدر البشبكي: **إن الشيطان وجد طُرقه عن البلقيني مسدودة فحَسَّن له نظمَ الشعر**».

فرحم الله ذلك المفتي!

(٣٥٦): «غازان بن آرغون السلطان مُعز الدين سلطان التتار...

حسّن له نايبه نَوروز الإسلام فأسلم في سنة (٦٩٤) ونثر الذهب والفضة واللؤلؤ علىٰ رؤوس الناس وفشا الإسلام في التتار، وكان ملك خراسان بأسرها والعراق وفارس والروم وأذربيجان والجزيرة، وكان يتكلم بالفارسية ويفهم أكثر اللسان العربي، ولما ملَك أخذ نفسَه بطريق جَدِّه الأعلىٰ جنكز خان الطاغية الذي أهلك العباد والبلاد، وصرف همته إلىٰ توفير العسكر وسد الثغور وعمارة البلاد والكف عن سفك الدماء.

ولما أسلم قيل له: إن دين الإسلام يحرم نكاح نساء الآباء، وقد كان استضاف نساء أبيه إلىٰ نسائه وكان أحبهن إليه خاتون، وهي أكبر نساء أبيه فهم أن يرتد عن الإسلام!

فقال له بعض خواصّه: إن أباك كان كافرًا ولم تكن خاتون معه في عقد صحيح إنما كان مسافحًا بِها فاعقِد أنت عليها فإنَّها تحل لك ففعل.



ولولا ذلك لارتد عن الإسلام، واستُحسن ذلك من الذي أفتاه به لهذه المصلحة بل هو حسن ولو كان تحته ألف امرأة علىٰ سفاح؛ فإن مثل هذا السلطان المتولي علىٰ أكثر بلاد الإسلام في إسلامه من المصلحة ما يسوغ ما هو أكبر من ذلك، حيث يؤدي التحريج عليه والمشي معه علىٰ أمر الحق إلىٰ ردته، **فرحم الله ذلك المُفتي!**».

إذا غضب خرج إلى الفضاء!

(٣٥٦): غازان بن آرغون...

وكان إذا غضب خرج إلىٰ الفضاء ويقول: **إن الغضب إذا خزَّنته زاد**، فإن كان جائعًا أكل أو بَعيد عهدٍ بالجماع جامع، ويقول: آفة العقل الغضب، ولا يصلح للمُلك مَن يتعاطىٰ ما يضر عقلَه».

عربيدٌ يفرق جماعة المسلمين في الحرم!

(٣٦٠): «فرَج بن بُرقوق الجرْكسي الملقبُ الناصر...

كان سلطانًا مهيبًا فارسًا كريمًا فتّاكًا ظالمًا جبّارًا منهمكًا علىٰ الخمر واللذات طامعًا في أموال الناس، وقد كان خلع في سنة (٨٠٨) بأخيه المنصور عبد العزيز نحو شهرين ثم أُعيد في جمادىٰ الآخرة منها، وأمسك أخاه، فحبسه ثم قتله، والعجب أن هذا السلطان المشتمل علىٰ هذه الأوصاف هو المُحدث للمقامات في بيت الله الحرام، التي كانت سببًا لتفريق الجماعات، واختلاف القلوب، والتباين الكلي في أشرف بقاع الأرض، فإنا لله وإنا إليه راجعون!».

أَقلِلِ الحفظ وأَكثر الفهم!

(٣٦٥): «القاسم بن أحمد بن عبد الله بن القاسم...

ارتحل إلىٰ صنعاء لسبب اقتضىٰ ذلك فوصل إليها في سنة (١١٩٣)، وقرأ في العربية والأصول علىٰ جماعة وأخذ عني في العربية وحضر في دروسي الحديثية، وهو مفرط الذكاء سريع الفهم قوي الإدراك **استفاد بدرايته أكثر مما استفاد بروايته**، ونظم الشعر الفائق وطارح بشعره جماعة من الأدباء».



وفي ذنوبنا التي قد أثقلت ظهورنا لقلوبنا أعظم شُغلة، وطوبى لمن شغلته عيوبه

(٣٦٥): «القاسم بن أحمد بن عبد الله بن القاسم...

وكان تحرير هذا الجواب في عنفوان الشباب، وأنا الآن أتوقف في حال هؤلاء[١] وأتبرأ من كل ما كان من أقوالهم وأفعالهم مخالفًا لهذه الشريعة البيضاء الواضحة التي ليلها كنهارها، ولم يتعبدني الله بتكفير من صار في ظاهر أمره من أهل الإسلام.

وهب أن المراد بما في كتبهم وما نقل عنهم من الكلمات المستنكرة المعنىٰ الظاهرِ والمدلولِ العربي، وأنه قاضٍ علىٰ قائله بالكفر البَواح والضلال الصُّراح، فمن أين لنا أن قائله لم يتُب عنه؟ ونحن لو كنا في عصره بل في مصره بل في منزله الذي يعالِج فيه سكراتِ الموت لم يكن لنا إلىٰ القطع بعدم التوبة سبيل؛ لأنَّها تقع من العبد بمجرد عقد القلب مالم يغرغرْ بالموت، فكيف وبيننا وبينهم من السنين عدة مِئين؟!

ولا يصح الاعتراض علىٰ هذا بالكفار، فيقال: هذا التجويز ممكن في الكفار علىٰ اختلاف أنواعهم؛ لأنا نقول فرقٌ بينَ من أصلُه الإسلام ومن أصله الكفر، فإن الحمل علىٰ الأصل مع اللبس هو الواجب، لاسيما والخروج من الكفر إلىٰ

---

(١) يعني بِهم ابن عربي والتلمساني وأضرابَهم من غلاة الصوفية!

الإسلام لا يكون إلا بأقوالٍ وأفعالٍ، لا بمجرد عقد القلب والتوجه بالنية المشتملين علىٰ الندم والعزم علىٰ عدم المعاودة، فإن ذلك يكفي في التوبة ولا يكفي في مصير الكافر مسلمًا، وأيضًا فرقٌ بين كفرِ التأويل وكفرِ التصريح علىٰ أني لا أثبتُ كفر التأويل -كما حققته في غير هذا الموطن.

وفي هذه الإشارة كفاية لمن له هداية، وفي ذنوبنا التي قد أثقلت ظهورنا لقلوبنا أعظم شُغلة، وطوبىٰ لمن شغلته عيوبه، ومن حُسن إسلام المرء تركُه ما لا يَعنيه!

فالراحلة التي قد حملتْ ما لا تكاد تنوءُ به إذا وضع عليها زيادة عليه انقطع ظهرها وقعدت علىٰ الطريق قبل وصول المنزل، وبلا شك أن التوثُّب علىٰ ثَلب أعراض المشكوك في إسلامهم فضلًا عن المقطوع بإسلامهم جرْأة غير محمودة، فربما كذب الظن وبطل الحديث وتقشعت سحائب الشكوك وتجلت ظلمات الظنون وطاحت الدقائق وحقَّت الحقائق.

وإن يومًا يفر المرء من أبيه ويشح بما معه من الحسنات علىٰ أحبابه وذويه لحقيق بأن يحافِظَ فيه علىٰ الحسنات ولا يَدعَها يوم القيامة نَهبًا بين قوم قد صاروا تحت أطباق الثرىٰ قبل أن يخرج إلىٰ هذا العالم بدهور، وهو غير محمود علىٰ ذلك ولا مأجور، فهذا ما لا يفعله بنفسه العاقل.

وأشد من ذلك أن ينْثرَ جراب طاعاته وينْثلَ كنانة حسناته علىٰ أعدائه غير مشكور بل مقهور.

وهكذا يُفعل عند الحضور للحساب بين يدي الجبار بالمغتابين والنمامين والهمازين واللمازين؛ فإنه قد علم بالضرورة الدينية أن مظلمة العرض كمظلمة



المال والدم، ومجرد التفاوت في مقدار المظلمة لا يوجب عدم إنصاف ذلك الشيء المتفاوت أو بعضه بكونه مظلمة، فكل واحدة من هذه الثلاث مظلمة لآدمي وكل مظلمة لآدمي لا تسقط إلا بعفوه، وما لم يُعف عنه باقٍ علىٰ فاعله يوافي عَرصاتِ القيامة.

فقل لي: كيف يرجو من ظلم ميتًا بثلب عرضه أن يعفو عنه؟ ومَن ذاك الذي يعفو في هذا الموقف وهو أحوج ما كان إلىٰ ما يقيه عن النار؟ وإذا التبس عليك هذا فانظر ما تجده من الطباع البشرية في هذه الدار فإنه لو ألقىٰ الواحد من هذا النوع الإنساني إلىٰ نار من نيار هذه الدنيا وأمكنه أن يتقيها بأبيه أو بأمه أو بابنه أو بحبيبه لفعل، فكيف بنار الآخرة التي ليست نار هذه الدنيا بالنسبة إليها شيئًا؟!

ومن هذه الحيثية قال بعض من نظر بعين الحقيقة: **لو كنتُ مغتابًا أحدًا لاغتبتُ أبي وأمي**؛ لأنَّهما أحق بحسناتي التي تُؤخذ مني قسرًا.

وما أحسن هذا الكلام!

ولا ريب أن **أشد أنواع الغيبة وأضرها وأشرها وأكثرها بلاء وعقابًا ما بلغ منها إلىٰ حد التكفير واللعن**؛ فإنه قد صحَّ أن تكفير المؤمن كُفرٌ، ولعنهُ راجع علىٰ فاعله، وسبابهُ فسق، وهذه عقوبة من جهة الله سبحانه.

وأما من وقع له التكفير واللعن والسب فمظلمة باقية علىٰ ظهر المكفِّر واللّاعِن والسبّاب، فانظر كيف صار المكفر كافرًا واللاعن ملعونًا والسبّاب فاسقًا، ولم يكن ذلك حد عقوبته بل غريمه ينتظر بعرصات المحشر ليأخذ من حسناته أو يضع عليه من سيئاته بمقدار تلك المظلمة!

ومع ذلك فلا بد من شيء غير ذلك وهو العقوبة علىٰ مخالفة النهي؛ لأن الله قد نهىٰ في كتابه وعلىٰ لسان ورسوله عن الغيبة بجميع أقسامها، ومخالف النهي فاعلُ محرمٍ، وفاعلُ المحرم معاقَب عليه».

سبحان مَن خلق الدَّعممة[١]!

(٣٦٦): «القاسم بن أحمد بن علي...

وهو الآن يسمِّعُ عليَّ صحيح البخاري ومسلم، يفِد إليَّ في بعض أيام الأسبوع ويواظب علىٰ ذلك مواظبة عظيمة ويفهم فهمًا جيدًا ويحفظ حفظًا صالحًا مع اشتغاله بقراءة علم الآلة وإكبابه علىٰ مطالعة الكتب الحديثية، وله بالسنة المطهرة شَغَفٌ عظيم ومحبة زائدة، ويعمل بكل ما صحَّ منها **ولا يبالي أطار لوم من يلومه أم وقع، ولا يلتفت إلىٰ من يريد صدَّه عن ذلك**؛ لأنه قد عرف أن هذا هو الحق الذي بعث الله به رسوله وأنزل به كتابه... زاده الله علمًا وكمالًا وعملًا بالحق وانقيادًا له، وجعله من أنصار السنة المطهرة، وعمره عند تحرير هذه الترجمة نحو سبع عشرة سنة ».

خروج إلى النزهة مع الكفاية!

(٣٨٠): «قطبُ الدين بنُ علاء الدين النَّهرواني ثم المكي الحنفي، العالم الكبير أحد المدرسين بالحرم الشريف في الفقه والتفسير والأصلين وسائر العلوم.

---

(١) العنوان من كلام شيخنا العمراني رحمه الله، كان يقوله في وجه المشغول بالنقد العاطل عن العلم والحلم.



وكان عظيم الجاه عند الأتراك لا يحج أحد من كبرائهم إلا وهو الذي يطوف به ولا يرتضون بغيره، وكانوا يعطونه العطاء الواسع، وكان يشتري بما يحصله منهم نفائس الكتب ويبذلها لمن يحتاجها، واجتمع عنده منها ما لم يجتمع عند غيره، **وكان كثير التنزهات في البساتين، وكثيرًا ما يخرج إلىٰ الطائف ويستصحب معه جماعة من العلماء والأدباء ويقوم بكفاية الجميع**».

خِصِّيصةٌ خصَّ الله بها ديار اليمن!

(٣٩١): «محمد بن إبراهيم الوزير...

ولا ريب أن علماء الطوائف لا يكثرون العناية بأهل هذه الديار؛ لاعتقادهم في الزيدية ما لا مقتضىٰ له إلا مجرد التقليد لمن لم يطلع علىٰ الأحوال؛ فإن في ديار الزيدية من أئمة الكتاب والسنة عددًا يجاوز الوصف يتقيدون بالعمل بنصوص الأدلة ويعتمدون علىٰ ما صح في الأمهات الحديثية وما يلتحق بِها من دواوين الإسلام المشتملة علىٰ سنة سيد الأنام ﷺ، ولا يرفعون إلىٰ التقليد رأسًا، ولا يشوبون دينهم بشيء من البدع التي لا يخلو أهل مذهب من المذاهب من شيء منها، بل هم علىٰ نمط السلف الصالح في العمل بما يدل عليه كتاب الله وما صح من سنة رسول الله ﷺ.

مع كثرة اشتغالهم بالعلوم التي هي آلات علم الكتاب والسنة من نحو وصرف وبيان وأصول ولغة وعدم إخلالهم بما عدا ذلك من العلوم العقلية.

ولو لم يكن لهم من المزية إلا التقيد بنصوص الكتاب والسنة وطرح التقليد؛ **فإن هذه خصيصة خص الله بها أهل هذه الديار في هذه الأزمنة الأخيرة ولا توجد في غيرهم إلا نادرًا**».

العلوم الدخيلة بَاعدتِ المسافة!

(٣٩١): «محمد بن إبراهيم الوزير...

جاء في المتأخرين من اشتغل بعلوم أخرىٰ خارجة عن العلوم الشرعية ثم استعملها في العلوم الشرعية، فجاء مَن بعده فظن أنَّها من علوم الشريعة فبعُدت عليه المسافة وطالت عليه الطرق، فربما بات دون المنزل ولم يبلغ إلىٰ مقصده فإن وصل بذهن كَليل وفهم عَليل؛ لأنه قد استفرغ قوته في مقدماته، وهذا مشاهد معلوم؛ **فإن غالب طلبة علوم الاجتهاد تنقضي أعمارهم في تحقيق الآلات وتدقيقها، ومنهم من لا يَفتح كتابًا من كتب السنة ولا سفرًا من أسفار التفسير، فحال هذا كحال من حصَّل الكاغد والحبر وبرىٰ أقلامَه ولَاك دواتَه ولم يكتب حرفًا، فلم يفعل المقصود؛ إذْ لا ريب أن المقصود من هذه الآلات هو: الكتابة**».

إمام المعقول والمنقول في اليمن!

(٣٩١): «محمد بن إبراهيم الوزير...

الإمام الكبير المجتهد المطلق... وتبحر في جميع العلوم وفاق الأقران واشتهر صيته وبعُد ذكره وطار علمه في الأقطار...

ولو لقيه الحافظ ابن حجر بعد أن تبحر في العلوم لأطال عنان قلمه في الثناء عليه فإنه يثني علىٰ من هو دونه بمراحل، ولعلها لم تبلغ أخباره إليه وإلا فابن حجر قد عاش بعد صاحب الترجمة زيادة علىٰ اثني عشر سنة... وكذلك السخاوي لو وقف علىٰ «العواصم والقواصم» لرأىٰ فيها ما يملأ عينيه وقلبه، ولطال عِنان قلمه في ترجمته، ولكن لعله بلغه الاسم دون المسمىٰ.

وبالجملة فصاحب الترجمة ممن يقصُر القلم عن التعريف بحاله، وكيف يمكن شرح حال من يزاحم أئمة المذاهب الأربعة فمن بعدهم من الأئمة المجتهدين في اجتهاداتِهم، ويضايق أئمة الأشعرية والمعتزلة في مقالاتِهم، ويتكلم في الحديث بكلام أئمته المعتبرين مع إحاطته بحفظ غالب المتون ومعرفة رجال الأسانيد شخصًا وحالًا وزمانًا ومكانًا، وتبحره في جميع العلوم العقلية والنقلية علىٰ حد يقصر عنه الوصف.

ومن رام أن يعرف حاله ومقدار علمه فعليه بمطالعة مصنفاته؛ فإنَّها شاهد عدل علىٰ علو طبقته، فإنه يسرد في المسألة الواحدة من الوجوه ما يُبهر لبَّ مطالعه ويعرفه بِقِصَر باعه بالنسبة إلىٰ علم هذا الإمام كما يفعله في «العواصم والقواصم»، فإنه يورد كلام شيخه السيد العلامة علي بن محمد بن أبي القاسم في رسالته التي

اعترض بِها عليه ثم ينسفه نسفًا بإيراد ما يزيفه به من الحجج الكثيرة التي لا يجد العالم الكبير في قوته استخراج البعض منها، وهو في أربعة مجلدات يشتمل علىٰ فوائد في أنواع من العلوم لا توجد في شيء من الكتب!

ولو خرج هذا الكتاب إلىٰ غير الديار اليمنية لكان من مفاخر اليمن وأهله!

ولكن أبىٰ ذلك لهم ما جُبلوا عليه من غمط محاسن بعضهم لبعض ودفن مناقب أفاضلهم.

ومن مصنفاته «ترجيح أساليب القرآن علىٰ أساليب اليونان» وهو كتاب في غاية الإفادة والإجادة علىٰ أسلوب مخترع لا يقدر علىٰ مثلِه إلا مثلُه.

ومنها كتاب «الروض الباسم» في مجلد اختصره من «العواصم».

وكتاب «إيثار الحق علىٰ الخلق» وهو غريب الأسلوب مفيد في بابه.

وله كتاب جمعه في «التفسير النبوي».

ومنها مؤلف في «مدح العزبة والعزلة»، ومؤلف في الرد علىٰ المعرِّي سماه «نصر الأعيان علىٰ شر العُميان».

وله كتاب «البرهان القاطع في معرفة الصانع».

وله كتاب «التنقيح في علوم الحديث».

وله مؤلفات غير هذه ومسائل أفردها بالتصنيف.

وهو إذا تكلم في مسألة لا يحتاج الناظر بعده إلىٰ النظر في غيره من أي علم كانت.



وقد وقفت من مسائله التي أفردها بالتصنيف علىٰ عدد كثير تكون في مجلد، وما لم أقف عليه أكثر مما وقفت عليه

وكلامه لا يشبه كلام أهل عصره ولا كلام من بعده بل هو من نمط كلام ابن حزم وابن تيمية، وقد يأتي في كثير من المباحث بفوائد لم يأت بِها غيره كائنًا من كان.

وديوان شعره مجلد وشعره غالبه في التوسلات والرقائق وتقييد الشوارد العلمية والمجاوبة لمن امتحن به من أهل عصره؛ فإن له معهم قلاقل وزلازل وكانوا يثورون عليه ثورة بعد ثورة، وينظمون في الاعتراض عليه القصائد، وأفضىٰ ذلك إلىٰ أن اعترض عليه شيخه -المتقدم ذكره- برسالة مستقلة فأجابَها بما تقدم، وكان يجاوبُهم ويصاولهم ويجاولهم فيقهرهم بالحجة، ولم يكن في زمنه من يقوم له لكونه في طبقة ليس فيها أحد من شيوخه فضلًا عن معارضيه.

والذي يغلب علىٰ الظن أن **شيوخه لو جمعوا جميعًا في ذات واحدة لم يبلغ علمهم إلىٰ مقدار علمه وناهيك بهذا.**

ثم بعد هذا انجمع وأقبل علىٰ العبادة وتمشْيخ وتوحَّش في الفلوات وانقطع عن الناس ولم يبق له شغله بغير ذلك، وتأسف علىٰ ما مضىٰ من عمره في تلك المعارك التي جرت بينه وبين معاصريه مع أنه في جميعها مشغول بالتصنيف والتدريس والذب عن السنة والرفع عن إعراض أكابر العلماء وأفاضل الأمة، والمناضلة لأهل البدع ونشر علم الحديث وسائر العلوم الشرعية في أرض لم

يألف أهلها ذلك لا سيما في تلك الأيام، فله أجر العلماء العاملين وأجر المجاهدين المجتهدين.

ولكنه ذاق حلاوة العبادة وطعم لذة الانقطاع إلىٰ جناب الحق فصغر في عينيه ما سوىٰ ذلك.

وقد ترجمه بعض بني الوزير في كراريس واستوفىٰ أحواله ولو ترجمه في مجلد لم يكن وافيًا بحقه.

وترجمه أيضًا جماعة من علماء الزيدية ومِن غيرهم غير مَن قدمنا ذكره كالوجيه العطاب اليمني والشريف الفاسي المالكي في كتابه «العقد الثمين» الذي جعله تاريخًا لمكة والبريهي، ومدحه غير واحد من أعيان العلماء.

والحاصل أنه رجل عرفه الأكابر وجهله الأصاغر، وليس ذلك مختصًا بعصره بل هو كائن فيما بعده من العصور إلىٰ عصرنا هذا.

ولو قلت: **إن اليمن لم ينجب مثله.** لم أبعُد عن الصواب، وفي هذا الوصف ما لا يحتاج معه إلىٰ غيره».

أمس الثنا واليوم سوء الأذى!

(٣٩١): محمد بن إبراهيم الوزير...

وما أحسن قوله في معاتبة شيخه المتقدم ذكرُه:

عرفــتَ قــدري ثــم أنكرتَــهُ ... فمــا عــدا بــالله ممــا بــدا

وكــلُّ يــومٍ لــك بــي موقــفٌ ... أســرفتَ في القــولِ بســوء البَــدا

أمــسِ الثنــا واليــومَ ســوءُ الأذىٰ ... ياليــتَ شــعري كيـف تُضـحي غـدا



يـــا شــــيبةَ العِتْـــرة في وقتـــه ... ومنصــــبَ التعلـــيم والاهتـــدا
قـــد خلـــع العلـــمُ رداءَ الهـــدىٰ ... عليـــك والشـــيبُ رداءَ الـــردىٰ
فصـــــنْ ردائيـــــكَ وطهِّرْهمـــا ... عـــن دنَـــس الإســـرافِ والاعتـــدا

الإتقان وليس الكثرة!

(٣٩٢): «محمد بن إبراهيم المعروف بالبدر البشْتَكي، الشاعر المشهور... وأمعن النظر في كتب ابن حزم فغلب عليه حبُّه، وتزيّا بكل زِي وسلك كل طريق، **واشتغل في فنون كثيرة، ولكنه لم يتقن شيئًا منها**».

صمت الوقار!

(٣٩٣): «محمد بن إبراهيم بن المفضل الشّبامي اليمني...

برع في جميع العلوم وفاق أهل عصره، وأخذ عنه الناس طبقةً بعد طبقةٍ ...

ومن غرائب ما وقع له مما يدل علىٰ مزيد عقله وسكونه وحسن سمْتِه أنه حضر مجلس الإمام المتوكل علىٰ الله إسماعيل وهو غاصٌّ بأعيان العلماء فدار الكلام في مسألة نحوية، فتكلم كل واحد من الحاضرين بما لديه، وصاحب الترجمة ساكت لم يتكلم بكلمة، مع كونه أكثر أهل ذلك المجلس علمًا، ولما طال الكلام في تلك المسألة التفت إليه من في ذلك المجلس ومنهم الإمام، وعولوا جميعًا في ذلك عليه، فقال: هذه المسألة ذكرها صاحب «المغني»، فجاؤا بالكتاب فأخذه وفتح فقلّب ورقه وأراهم تلك المسألة بلفظها فعجبوا من تحقيقه أولًا، ومن سكوته مع علمه بالمسألة، لاسيما وقد كثر الكلام فيها، وطال وعرض، خصوصًا

في مثل ذلك المجلس الذي لا يُمسِك نفسه فيه إلا من كان جبلًا من جبال التقوىٰ».

شيخ المؤرخين!

(٤٠٢): «محمد بن أحمد بن عثمان أبو عبد الله شمس الدين الذهبي الحافظ الكبير، المؤرخ صاحب التصانيف السائرة في الأقطار...

وجميع مصنفاته مقبولة مرغوب فيها رحل الناس لأجلها وأخذوها عنه وتداولوها وقرأوها وكتبوها في حياته وطارت في جميع بقاع الأرض، وله فيها تعبيرات رائقة وألفاظ رشيقة غالبًا لم يسلك مسلكه فيها أهل عصره ولا من قبلهم ولا من بعدهم..

وبالجملة فالناس في التاريخ من أهل عصره فمن بعدهم عيال عليه، ولم يجمع أحد في هذا الفن كجمعه ولا حرره كتحريره».

الانتصاف للذهبي!

(٤٠٢): «محمد بن أحمد بن عثمان الذَّهبي...

وقد أكثر التشنيع عليه تلميذه السُّبْكي وذكره في مواضع من «طبقاته للشافعية»، ولم يأت بطائل بل غاية ما قاله: إنه كان إذا ترجم الظاهرية والحنابلة أطال في تقريظهم وإذا ترجم غيرهم من شافعي أو حنفي لم يستوفِ مايستحقه.

وعندي: أن هذا كما قال الأول:

وتلكَ شكاةٌ ظاهرٌ عنكَ عارُها



فإن الرجل قد مُلئ حبًّا للحديث وغلب عليه؛ فصار الناس عنده هم أهله، وأكثر محققيهم وأكابرهم هم من كان يطيل الثناء عليه إلا من غلب عليه التقليد وقطع عمره في اشتغال بما لا يفيد.

ومن جملة ما قاله السبكي -في صاحب الترجمة-: أنه كان إذا أخذ القلم غضب حتىٰ لا يدرىٰ ما يقول.

وهذا باطل؛ فمصنفاته تشهد بخلاف هذه المقالة وغالبها الإنصاف والذب عن الأفاضل، وإذا جرىٰ قلمه بالوقيعة في أحد لم يكن من معاصريه فهو إنما روىٰ ذلك عن غيره وإن كان من معاصريه فالغالب أنه لا يفعل ذلك إلا مع من يستحقه، وإن وقع ما يخالف ذلك نادرًا فهذا شأن البشر، وكل أحد يُؤخذ من قوله ويترك إلا المعصوم، والأهوية تختلف والمقاصد تتباين، وربك يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون».

لقاء في المنام بين الشوكاني والبدر الأمير!

(٤١٨): «محمد بن إسماعيل بن صلاح الكُحْلاني ثم الصنْعاني المعروف بالأمير، الإمام الكبير المجتهد المطْلَق صاحب التصانيف...

وبالجملة فهو من الأئمة المجددين لمعالم الدين.

وقد رأيته في المنام في سنة (١٢٠٦) وهو يمشي راجلًا وأنا راكب في جماعة معي فلما رأيته نزلت وسلمت عليه، فدار بيني وبينه كلام، حفظت منه أنه قال: دقق الإسناد وتأنق في تفسير كلام رسول الله ﷺ.

فخطر ببالي عند ذلك أنه يشير إلىٰ ما أصنعه في قراءة «البخاري» في الجامع، وكان يحضر تلك القراءة جماعة من العلماء ويجتمع من العوام عالم لا يحصون فكنت في بعض الأوقات أفسر الألفاظ الحديثية بما يُفهِمُ أولئك العوام الحاضرون، فأردت أن أقول له: إنه يحضر جماعة لا يفهمون بعض الألفاظ العربية. فبادر وقال- قبل أن أتكلم-: قد علمتُ أنه يقرأ عليك جماعة وفيهم عامة ولكن دقِّق الإسناد وتأنق في تفسير كلام رسول الله ﷺ.

ثم سألته عند ذلك عن أهل الحديث ما حالهم في الآخرة؟ فقال: بلغوا بحديثهم الجنة أو بلغوا بحديثهم بين يدي الرحمن (الشكُّ مني).

ثم بكىٰ بكاءً عاليًا وضمني إليه وفارقني.

فقصصت ذلك علىٰ بعض من له يد في التعبير وسألته عن تأويل البكاء والضم، فقال: لا بد أن يجري لك شيء مما جرىٰ له من الامتحان.

فوقع من ذلك بعد تلك الرؤيا عجائب وغرائب كفىٰ الله شرَّها».

مَلِكٌ تُكنيه رعيته: أبو عافية!

(٤١٩): «الإمام المؤيد بالله محمد ابن الإمام المتوكل علىٰ الله إسماعيل ابن الإمام القاسم بن محمد...

وكان من أولياء الله، ومن أعدل الخلفاء لم يسمع عنه الجور في شيء من أموره، وكان كثير العبادة كثير البكاء دائم الخشية لله، لا يأكل إلا من نذور تصل إليه، بعد أن يعلم أنها من جهة تحل له، ولا يتناول شيئًا من بيوت الأموال، ومجلسه معمور بالعلماء والصالحين، وقراءة العلم وتلاوة القرآن، لا يزال رطب

اللسان بذكر الله علىٰ جميع حالته، وقد صار عدله في الرعية مثلًا مضروبًا، **وكان أهل عصره يكنونه فيقولون: «أبو عافية»؛ لأنه لا يضر أحدًا منهم في مال ولا بدن»**.

سلطان يُكرم العلماء!

(٤٢١): «السلطان محمد خان بن بايزيد بن مراد خان بن أورخان الغازي ابن عثمان الغازي سلطان الروم وابن سلاطينها...

كان مُعظِّمًا للعلماء عارفًا بدرجاتهم منعمًا عليهم بالمقررات الواسعة مرتبًا لهم في مدارس الروم مبالغًا في استجلاب خواطرهم حتىٰ كأنه أحدَهم، وإذا سمع بعالم في جهة من الجهات كاتبَه ورغّبه في القدوم عليه وأجرىٰ له من النفقات ما يكفيه بعضه، وكان يقرأ علىٰ أكابر العلماء ويأخذ عن كل عالم في علمه ويتناظرون بين يديه».

انتصاف لابن قيم الجوزية!

(٤٢٤): «محمد بن أبي بكر الدمشقي شمس الدين ابن قيم الجوزية الحنْبلي، العلامة الكبير المجتهد المطْلَق المصنف المشهور، قال الذهبي في «المختصر»: جلس مدة لإنكار شد الرحل لزيارة قبر الخليل عليه السلام، ثم تصدر للاشتغال ونشر العلم، ولكنه معجب برأيه جريء علىٰ أمور انتهىٰ

قلت: بل كان متقيدًا بالأدلة الصحيحة معجبًا بالعمل بِها غير معوِّل علىٰ الرأي صادعًا بالحق لا يُحابي فيه أحدًا، ونعمتِ الجرأة!

وليس له علىٰ غير الدليل معوَّل في الغالب، وقد يميل نادرًا إلىٰ مذهبه الذي نشأ عليه، ولكنه لا يتجاسر علىٰ الدفع في وجوه الأدلة بالمحامِل الباردة كما يفعله غيره من المتهذبين، بل لا بد له من مستند في ذلك.

وغالب أبحاثه الإنصاف والميل مع الدليل حيث مال وعدم التعويل علىٰ القيل والقال.

وإذا استوعب الكلام في بحث وطوَّل ذيوله أتىٰ بما لم يأت به غيره وساق ما ينشرح له صدور الراغبين في أخذ مذاهبهم عن الدليل.

وأظنها سرَت إليه بركة ملازمته لشيخه ابن تيمية في السراء والضراء، والقيام معه في محنه ومؤاساته بنفسه وطول تردده إليه، وبالجملة فهو أحد من قام بنشر السنة، وجعلها بينه وبين الآراء المحدثة أعظم جُنَّة، فرحمه الله وجزاه عن المسلمين خيرًا!».

عقوبة عاجلة!

(٤٣١): «محمد بن الحسن بن أحمد الحَيْمي الكَوْكباني القاضي الأديب... أخبر أنه كان بـ (شِبَام) رجل يتظاهر بعشق امرأة وهو مشهور بالشطارة والإقدام، وكان لا يزال يجتمع بِها ولا تقدر أن تمتنع منه؛ لشدة بطشه متىٰ أرادها، واتفق أنه كان في أيام الحصاد يحرس زرعًا له في بيت له لطيف، بظاهر (شِبَام) وقد خلا بتلك المرأة بالليل، وهو ليلة النصف من شعبان المشهورة بالبركة، فلما هدأت العيون سمع أهل (شبام) صوتًا يشبه صوت الصاعقة، قال صاحب الترجمة: وأنا منهم، ففزع الناس وخافوا خوفًا شديدًا وصعدوا السطوح، وإذا الحرس يتبادرون



إلىٰ بيت ذلك الرجل، وهم يقولون: إنه انقضَّ كوكب عظيم -وله صوت عظيم ما سُمِعَ بمثله- إلىٰ بيته، فلما وصلوا إليه وجدوا البيت قد صار كوم تراب، والرجل فيه وهم لا يعلمون بمبيت المرأة معه، قال صاحب الترجمة: فأرسلوا إليَّ لأحضر علىٰ الحفر عنه -وكنت قاضيًا- فحفروا عنه إلىٰ الصباح حتىٰ ظهر لهم وهو علىٰ تلك المرأة في الفاحشة وقد صارا حُمَمة، فأُخرجا ودُفنا، وكانا عبرة!».

زاد في عمري ببركة الصدقة!

(٤٣١): «محمد بن الحسن بن أحمد الحَيْمي الكَوْكباني القاضي الأديب... حدّث أن رجلًا اسمه أحمد بن صلاح الغفاري الفقيه من سكان قلعة (شهارة) مرض وأُغمي عليه وأيس منه أهله ووجهوه إلىٰ القبلة وقعدوا يقرأون القرآن حولَه، واتفق أن مسكينًا جاء إلىٰ بابه فأعطته زوجته حَبًّا في طبق، ثم بعد ما مضىٰ السائل أفاق ذلك المريض وطلب مأكولًا، وكلمهم وقال: بينما أنا في شدة لا أعقل إذ دخل عليه من الباب شخص كالجزار مشمر عن ساقيه وذراعيه، وبيده سكين عظيمة، فأخرج من نطاقه مِسَنًّا وجعل يسُنُّ السكين ثم يقدم إليَّ لذبحي، وقعد فوق صدري وأنا شاخص إليه، فبينما هو في ذلك إذ انفلق السقف ونزل منه شخصان أبيضان في غاية الوسامة وطيب الرائحة، وبيد أحدهما طبقٌ فيه حَبٌّ فكفاه عن قتلي وسارّاه بشيء وأشارا إلىٰ الطبق، **وفهمت منهما أن الله زاد في عمري ببركة الصدقة**».

كتب إليَّ يعزيني بولاية القضاء!

(٤٣٨): «محمد بن الحسين الصَّنْعاني...

أحد علماء صنعاء المفيدين، ودرّس في فنون وكان مائلًا إلىٰ العمل بالأدلة مطَّرحًا للتقليد، حسن الأخلاق متواضعًا متعففًا مُمْتِع المحاضرة، وله مباحث علمية جيدة ونظم كنظم العلماء...

ومن أحسن ما يُحكىٰ عنه أني لما ابتُليت بالقضاء كتب الشعراء إليَّ تَهانيَ، وهو كتب إلىٰ بتعزية في أبيات حسنة وذكر فيها عجائب، فوقع لذلك عندي موقع عظيم».

الغيبة المكتوبة أعظم إثمًا!

(٤٣٩): في ترجمة محمد بن حسين دُلامة الذَّماري ثم الصَّنْعاني:

«الغيبة قبيحة إذا كانت بفلتات اللسان التي لا تُحفظ ولا يَبقىٰ أثرُها بل تُنسىٰ في ساعتِها، فكيف بِها إذا حُررت بالأقلام وبقيت أعوامًا بعد أعوام؟ ولا سيما إذا لم يتعلق بِها غرض الجرح والتعديل؛ فإنَّها من حصائد الألسنة التي تكب صاحبها علىٰ مَنْخره في نار جهنم، نسأل الله السلامة!».

لم يدخل اليمن -فيما أظن- أعرف منه بالطب!

(٤٤٩): «محمد بن صالح الجَيْلاني الفارسي ثم اليمني، نشأ ببلاد العجم وأخذ علم الطب عن أهلها، ثم ارتحل إلىٰ الهند في أيام السلطان أبي الحسن قطب شاه -ملك الدكن- فنال هنالك دنيا عريضة وطار ذكره، ثم توجه للحج فركب البحر ومعه ذخائر وكتب نفيسة، فانكسر المركَب ولم يخرج إلا بنفسه، وأقام بمكة زمانًا



ثم ركب البحر أيضًا يريد بلاد الهند، فاجتاز باليمن والخليفة فيها الإمام المتوكل علىٰ الله إسماعيل ابن القاسم، فلما تحقق فضلَه في الطب استدعاه إلىٰ حضرته وأحسن إليه ورغبه في السُّكون باليمن، فرغب وأجرىٰ له النفقات الواسعة، ونال من آل الإمام القاسم الرغائب، وانتفع به الناس، وطار صيته، واشتهر ذكره، **ولم يدخل اليمن فيما أظنُّ أعرَف منه بالطب**، ولم يزل ذكره مشهورًا في الناس إلىٰ الآن، يحكون عنه غرائب في الطب تتحيرُ لها الأذهان وتطرَبُ لسماعها الآذان.

ومما يحكىٰ عنه ما ذكره صاحب «نسمة السَّحَر» في ترجمته قال: سمعت أن بعض نساء الأغنياء كانت حاملًا فلما أثقلت أصبحت في بعض الأيام ميّتةً لا حراك بِها، ولم يكن ظهر بِها مرضٌ فاستدعىٰ أهلها جماعة من الأطباء فقضوا بموتِها فجأة فلم تطب نفس أهلها دون أن ينظر إليها صاحب الترجمة، فلما رآها قال لوالدها: إن أعطيتني مئة قِرْش رأيتَها الساعة في عافية! فالتزم له بذلك، فجسَّ فؤادها ثم أخرج إبرة معه فجعل ينقش بِها علىٰ فؤادها برِفق فقامت في عافية، فسُرَّ بذلك أهلها، ثم سألوه عن سبب العلة فقال: إن الجنين قبَض بيده علىٰ الشريان الذي ينفذُ فيه النفس من الرئة، فلما أحسَّ بالإبرة أرسل يده فذهب المانع.

وسأله القاضي محمد بن الحسن الحَيْمي أن يفيده الطبَّ فقال: أنا آخذ من مولانا يحيىٰ بن الحسين كل يوم ربع قِرْش وأروح إليه، وأنت تجيء إليَّ وآخذ منك كل يوم ثُمن قِرْش، إلا أنه لم يكن يعالج الفقراء احتسابًا كسُنةٍ بقْراط في

«الأوائل»، وابن زهرة وصاحب «الحاوي» وغيرهم في المتأخرين؛ ويحتج بأن الموت خيرٌ للفقراء».

انتصاف لابن تيمية!

(٤٥٩): «محمد بن عبد الرحيم بن محمد صفي الدين الهنْدي، الفقيه الشافعي الأُصولي...

لما عُقد بعض المجالس لابن تيمية عُيِّن صاحب الترجمة لمناظرته، فقال لابن تيمية في أثناء البحث: أنت مثل العصفور تزطُّ من هنا إلىٰ هنا إلىٰ هنا، ولعله قال ذلك لِما رأىٰ من كثرة فنون ابن تيمية وسعة دائرته في العلوم الإسلامية، والرجل ليس بكُفء لمناظرة ذلك الإمام إلا في فنونه التي يعرفها، وقد كان عريًّا عن سواها، ولهذا قيل أنه ما كان يحفظ من القرآن إلا ربعَه، حتىٰ نُقل عنه أنه قرأ: ﴿الٓمٓصٓ﴾ بفتح الميم وتشديد الصاد!».

(٤٦٧): «محمد بن عبد الله بن محمد...المعروف بابن ناصر الدين...

وقد قام عليه العلاءُ البخاريُّ لكونه صنف «الرد الوافر علىٰ من زعم أن من أطلق علىٰ ابن تيمية أنه شيخ الإسلام كافر»، وكان ذلك كالرد علىٰ العلاء البخاري؛ لكونه كان من أعظم المنكرين علىٰ ابن تيمية ثم جاوز في ذلك الحد حتىٰ أفتىٰ بكفر ابن تيمية -صانه الله عن ذلك، واتفقت بسبب ذلك حوادث شنيعة».



السخاء قد يُزيل السخائن!

(٤٦٠): «محمد بن عبد الله بن إبراهيم المُرْشدي...

كانت له أحوال وهمة في خدمة الناس وضيافتهم بحيث يطعم كل من مر به من كبير وصغير وقليل وكثير، ويقدم لكل أحد ما يقع في خاطره، فاشتهر بِهذا وذاع، ومع ذلك لم يكن يقبل لأحد شيئًا حتىٰ إن السلطان بعث إليه بذهبٍ مع بعض أمرائه فلم يقبله، وحج في هيئة كبيرة وتلامذةٍ، فكان ينفق في كل يوم زيادة علىٰ ألف دينار، وأنفق في خمس ليالٍ ما قيمته نحو خمسة وعشرين دينارًا، وكان كل من ينكر عليه إذا اجتمع به زال ذلك».

إذا جالسته خرجت مِن الدنيا!

(٤٦٦): «محمد بن عبد الله بن لطف الباري الكِبْسي ثم الصنعاني، ولد سنة وطلب العلم فنال منه حظًّا مباركًا ونصيبًا وافرًا، وأكبَّ علىٰ كتب السنة المطهرة وكتب التفسير وأخذ عنه الناس، وهو من أهل الورع الشحيح والتسنن الصحيح، والعبادة والمداومة علىٰ ذكر الله والاقتداء بالسلف الصالح، وهو ممن إذا رأيته ذكرت الله ﷻ وإذا جالسته خرجتَ من الدنيا، وقد أطبق أهل العصر علىٰ فضله».

مِن طرق ترسيخ العلم!

(٤٨٤): «محمد بن علي الشَّوْكاني...

وكثيرًا ما كان يقرأ علىٰ مشايخه فإذا فرغ من كتاب قراءةً أخذه عنه تلامذته بل ربما اجتمعوا علىٰ الأخذ عنه قبل أن يفرغ من قراءة الكتاب علىٰ شيخه، وكان

يبلغ دروسَه في اليوم والليلة إلىٰ نحو ثلاثة عشر درسًا منها ما يأخذه عن مشايخه ومنها ما يأخذه عنه تلامذته».

أخذتُ العلم بلا ثمن فأنفقه كذلك!

(٤٨٤): «محمد بن علي الشَّوْكاني...

وكان في أيام قراءته علىٰ الشيوخ وإقرائه لتلامذته يفتي أهل مدينة صنعاء بل ومن وفد إليها، بل ترد عليه الفتاوىٰ من الديار التهامية وشيوخه إذ ذاك أحياء، وكادت الفُتيا تدور عليه من عوامّ الناس وخواصّهم، واستمر يفتي من نحو العشرين من عمره فما بعد ذلك، وكان لا يأخذ علىٰ الفتيا شيئًا تنزهًا فإذا عوتب في ذلك قال: أنا أخذت العلم بلا ثمن فأريد إنفاقه كذلك».

لا يَعرف الفضل لأهله إلا ذووه!

(٤٨٤): «محمد بن علي الشَّوْكاني...

وهو الآن يشتغل بتصنيف الحاشية التي جعلها علىٰ الأزهار، وقد بلغ فيها إلىٰ كتاب الجنايات وسماها «السيل الجرَّار علىٰ حدائق الأزهار»، وهي مشتملة علىٰ تقرير مادل عليه الدليل ودفع ما خالفه والتعرض لما ينبغي التعرض له والاعتراض عليه من شرح الجلال وحاشيته، وهذا الكتاب إن أعان الله علىٰ تمامه فسيعرف قدره من يعْترف بالفضائل وما وهب الله لعباده من الخير».

ابتهال عظيم إلى الحي القيوم!

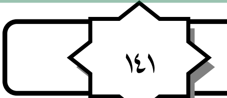
(٤٨٤): «محمد بن علي الشَّوْكاني...

وابتلي بالقضاء في مدينة صنعاء بعد موت من كان متوليًّا للقضاء الأكبر بِها، وقد تقدم شرح ذلك في ترجمة مولانا الإمام -حفظه الله- في حرف العين، وهو حال تحرير هذه الأحرف مستمر علىٰ ذلك ولم يدع الاشتغال بالعلم وإن كان اشتغاله الآن بالنسبة إلىٰ ما كان عليه ليس شيئًا، وكان دخوله في القضاء وهو ما بين الثلاثين والأربعين، وهو الآن يسأل الله الذي لا إله إلا هو الحليم الكريم رب العرش العظيم أن يحسن ختامه ويُنيله من خيري الدارين مرامه، ويسدده في أقواله وأفعاله، وينزع حب الدنيا من قلبه حتىٰ ينظر إلىٰ الحقيقة فيفوز نيل دقائق الطريقة، اللهم اجذبه إلىٰ جنابك العلي جَذبةً يصحىٰ عندها من سكر غروره، وافتح له خَوْخة يتخلص بِها عن حجابة المظلم إلىٰ المعارف الحقَّة، ولا تخرجه من هذه الدنيا إلا بعد أن يسبح في بحار حبك ويغسل أدران قلبه بمياه قربك، فأنت إذا شئت جعلت المُريد مُرادًا فنال مُرادًا».

لم يكتب قرين الشمال شيئًا منذ سنين!

(٤٨٩): «محمد بن علي بن وَهْب ... المعروف بابن دقيق العيد الإمام الكبير صاحب التصانيف المشهورة...

وكان لا يسلك المراء في بحثه بل يتكلم بكلمات يسيرة ولا يُرجَع، حتىٰ حكي عنه أنه قال: لكاتب الشمال سنين لم يكتب علي شيئًا...



وقال ابن سيد الناس: ولم يزل حافظًا للسانه مقبلًا علىٰ شأنه، ولو شاء العادُّ أن يحصر كلماته لحصرها».

هذا ثواب قراءة سورة الكهف!

(٤٨٩): «محمد بن علي بن وَهْب ...

قال ابن حجر: قرأت بخط محمد بن عبد الرحيم العثماني قاضي صفَد، أخبرني الأمير سيف الدين الحُسامي قال: خرجت يومًا إلىٰ الصحراء فوجدت ابن دقيق العيد واقفًا في الجبَّانة يقرأ ويدعو ويبكي، فسألته فقال: صاحب هذا القبر كان من أصحابي وكان يقرأ علي فمات فرأيته البارحة فسألته عن حاله؟ فقال: لما وضعتموني في القبر جاءني كلبٌ أنْقطُ كالسّبُع وجعل يروِّعني فارتعْت، فجاء شخص لطيف في هيئة حسنة فطردَه وجلس عندي يؤنِّسني، فقلت: من أنت؟ فقال: أنا ثواب قراءتك الكهف يوم الجمعة. انتهىٰ».

الحسنة بعشر أمثالها!

(٤٩٤): «محمد بن عمر بن علي بن عبد الصمد بن عطية بن أحمد الأُمَوي صدر الدين بنُ الوكيل وابنُ المرحَّل...

قال الصفدي: كنت معه ليلةَ عيدٍ فوقف له فقير فقال: شيءٌ لله، فالتفت إليّ وقال: ما معك؟ قلت: مئتا درهم، قال: ادفعها إليه، فدفعتها إليه ثم قلت له: يا سيّدي غدًا العيد وليس عندنا شيء، فقال: امضِ إلىٰ القاضي كريم الدين فقل له: الشيخ يهنيك بِهذا العيد ففعلتُ، فقال: كأنَّ الشيخ يطلب نفقةً أعطوه ألفي درهم، فرجعتُ بِها إليه فقال: الحسنة بعشر أمثالها».



قدحٌ في كتب قرينه ولم يرها!

(٥٠٥): «محمد بن محمد المعروف بالخيْضَري...

ترجمه السخاوي ترجمةً طويلة كلّها ثلب وشتم كعادته في أقرانه، ومن أعجب ما رأيته فيها من التعصب أنه قدح في مؤلفات المترجَم له ثم قال: إنه ما رآها! وهذا غريب!»[١].

لا خير في علمك بغير علم الحديث!

(٥١٧): في ترجمة محمد بن محمد العلاء البُخاري :«وليس في علم إنسان خيرٌ إذا كان لا يعرف علم الحديث، وإن بلغ في التحقيق إلىٰ ما ينال».

جوابٌ موفقٌ رشيدٌ.. حقن الله به الدماء!

(٥١٩): «محمد بن محمد المعروف بابن الشِّحنة الكبير...

ولما فتح تَيمورلنك (حلب) وكان صاحب الترجمة بِها فاستحضره هو وطائفة من العلماء وسألهم عن القتلىٰ من الطائفتين، من أصحابه ومن أهل (حلب) مَن في الجنة منهم ومَن في النار؟ فقال صاحب الترجمة: هذا سؤال قد سُئل عنه رسول الله ﷺ، فاستنكر تيمور ذلك! فقال له: إن رسول الله ﷺ سُئل:

---

(١) قلت: ليس بغريب إذا فقد الورع والإنصاف؛ فأحد المشتغلين بالحديث في عصرنا سئل عن كتاب: «تيسير مصطلح الحديث» للشيخ محمود الطحان (ت: ١٤٤٤)، فقال: لا أعرفه، ولا أنصح به!

عن الرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل حمية... كما في الحديث، فقال: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**»، فاستحسن تيمور كلامه.

ولله دره! فلقد لُقِّن الصواب وجاء بما لم يكن في حساب، ولم يكن لتيمور مقصد بالسؤال المذكور إلا التوصل إلىٰ سفك دمه ودم من معه من العلماء، كما جرت بذلك عاداته؛ فإنَّهم إن قالوا: إن المحقين أصحابَهم لم يأمنوا شرَّه، وإن قالوا: إن المحقين أصحابه أقرّوا علىٰ أنفسهم بالغي، ويجد بذلك السبيل إلىٰ سفك دمائهم»(١).

فللّه در هذا العالم الصادع بالحق!

(٥٢١): «محمد بن محمد بن وَقيل محمد بن حمزة الفَنادي...

ومن تصلُّبه في الدين وتثبته في القضاء أنه رد شهادة سلطان الروم في قضية فسأله السلطان عن سبب ذلك؟ فقال: إنك تاركٌ للجماعة، فبنىٰ السلطان قدّام قصره جامعًا وعيَّن لنفسه فيه موضعًا ولم يترك الجماعة بعد ذلك، **فلله در هذا العالم الصادع بالحق**، مع ما هو فيه من التقلب في نعمة سلطانه التي سمعت بعض وصفها!

---

(١) قال شيخنا القاضي محمد بن إسماعيل العمراني ﵀: «والحكمة في الجواب: أنه لو قال: قتلانا في الجنة. لحقد السفاح، وزاد في طغيانه، ولو قال: قتلاكم في الجنة. لكان فيه اعتراف بأن تيمور وجيشه علىٰ حق، ولأقر باحتلال البلاد».



ورب عالم لا يقدر على الكلمة الواحدة في الحق لمن له عليه أدنى نعمة مخافةً من زوالها!

بل رب عالم يمنعه رجاء العطية ونيل الرتبة السنيّة عن التكلم بالحق، ولم يكن بيده إلا مجردُ الأماني الأشعبية.

ورحم الله هذا السلطان الذي سمع الحق فاتبع ولم تصدّه سُورة الملك وما هو فيه من سلطان الذي كاد يطبق الأرض عن قبول ذلك، وهذا السلطان المرحوم هو السلطان بايزيد بن مراد».

ومتى زِدتَ في الإصلاح زِدتَ تقربًا مني!

(٥٢٥): «محمد بن مصلح الدين القُوجوي الرومي الحنفي محيي الدين المعروف بشيخ زادَه...

وحكى عنه صاحب «الشقائق» أيضًا أنه تولى القضاء وكان يرى رسول الله ﷺ في كل أسبوع مرة فترك القضاء طمعًا في كثرة رؤيته في المنام لرسول الله ﷺ فلم يره بعد تركه للقضاء، فدخل في القضاء ثانيًا فرآه، فقال له: يا رسول الله إني تركت القضاء ليزيد قربي منكم فلم يقع كما رجوتُ، فقال له رسول الله ﷺ: إن المناسبة بيني وبينك عند القضاء أزيد من المناسبة عند الترك؛ لأنك عند القضاء تشتغل بإصلاح نفسك وإصلاح أمتي، وعند الترك لا تشتغل إلا بإصلاح نفسك، **ومتى زدتَ في الإصلاح زدت تقربًا منّي**».

كلام يقرأ طردًا وعكسًا!

(٥٢٨): «محمد بن هاشم بن يحيىٰ الشَّامي ثم الصنْعاني...

ومن غريب صنعه وبديع اختراعه هذان البيتان فيما لا يستحيل بالانعكاس، وهما يفوقان علىٰ ما نظمه مَن قبلَه في ذلك:

أمــا لِســلامكمْ قــربٌ ورقْــمٌ ... أمقــرئ بــرقْمكمُ السَّــلاما

أمالــكَ لا تــردّ صَــداه أنّــا ... فأنّــا هــاد صــدّرت الكلامــا

(٥٧٠): «هبة الله بن عبد الرحيم بن إبراهيم الحَمَوي...

ومن لطيف كلامه: (سورُ حَماةَ بربِّها مَحروسٌ). وهو مما لا يستحيل بالانعكاس».

مساجلة شعرية!

(٥٢٨): «محمد بن هاشم بن يحيىٰ الشَّامي ثم الصنْعاني...

ودعاني -رحمه الله- إلىٰ منزله في بعض الأيام فاحتفل في ذلك احتفالًا زائدًا، وكان معي صديق لي من أعيان أهل العلم فكتب صاحب الترجمة إليَّ وإلىٰ صاحبي بعد ذلك المجلس بأيام هذه الأبيات:

يــا نيِّــرَي فلــكِ العليــاءِ دامَ لنــا ... منْ نورِ علمِكُمـا مـا يكشـفُ الظُّلَما

ولا تكــدَّرَ هــذا النــورُ إنْ حجَبــتْ ... نـورَ الزواهـرِ سـحبٌ تُمطرُ الـدِّيما

مــاذا تقــولانِ فيمــا قــدْ تقــرر بــا ... لإجمـاعِ حقَّـقَ هـذا مَـنْ بـهِ حَكَمـا

ومــا علمنَــا خلافًــا فيــهِ قــطُّ لمــنْ ... مضــىٰ وحبَّــرهُ في الشــعرِ أو نَظَمــا

قــالوا بــأنَّ شــهاداتِ القلــوبِ إذا ... قامــت بصــدقِ ودادٍ صــارَ مُلتزَمــا

ومــنْ أحــبَّ امــرأً صــحَّ القيــاسُ لــهُ ... قطعًــا بأنهمــا في السِّــلكِ قــد نُظِمــا

وقــدْ تضــمنَ تصــديقًا تصــوَّرَهُ ... بنســبةٍ لتســاوي الــودِّ بينهمــا

وإنما الشوقُ مِن قسمِ المشكِّكِ هـلْ ... فيــه اعــتراضُ قيــاسٍ في اســتوائِهِما

وقــدْ تــرددَ في أشــكالهِ فأفيــ ... ــدوا مُغرمًا صــار مُشــتاقًا لوصــلِكُما

فأجبت عن هذا السؤال بقولي:

يا ابـنَ البهاليـلِ والأطـوادِ مـنْ مُضَـرٍ ... والمنْعمـينَ بسَـيْبٍ يُخجـلُ الـدِّيَما

قـدْ دلَّ نظمـكَ للـدرِّ الثمـينِ بـلا ... شـكٍّ بأنـكَ بحـرٌ للعلـومِ طَمَـىٰ

ورمْـتَ إبـداءَ عتْـبٍ في ملاطفـةٍ ... وقـد أسأتُ ببعـدي فاحتمـلْ كرَمـا

فالشـوقُ بالشـوقِ منقـاسٌ ومعتَـبرٌ ... قضىٰ بـذلك خيـرِ الرسْـلِ والحُكَمـا

ولا تشـكُّكَ بالتشـكيكِ فهـو علـىٰ ... تواطُـؤٍ باتحـادِ الجـنسِ قـدْ نُظِمـا

وموجبـاتُ ودادي فيـكَ مـا سُـلبتْ ... ولا غـدا عِقـدُ ودٍّ عنـكَ مُنْفصـما

ولا انفصلتَ لمنعِ الجمعِ مـذْ دَلِهَـتْ ... نفسـي بمنـعِ خلـوٍّ صـارَ ملتزَمـا

مُحصِّـلاتُ ودادي مـا رضـيتُ لهـا ... عنـكَ العـدولَ ولا وليتُهـا العـدَما

وقـدْ تـألف شَـكْلانا علـىٰ نمـطٍ ... لــهُ نتــائجُ ودٍّ يمنــعُ العَقَمــا

الزمان حافل بالأضداد!

(٥٢٨): «محمد بن هاشم بن يحيىٰ الشَّامي ثم الصنْعاني...

وشعره في كل فن جيد، ومن رام الوقوف علىٰ ما حكيتُه فلينظر في قصيدته الحائية، التي قابل فيها بين الأضداد، وضرب فيها الأمثال، وجاء بما لا يقدر عليه غيره، فمنها:

وكلُّ محسّبِ الأشياءِ مما ... يعانيهِ كئيبًا أو مُراحا
إذا صدحَ الحمامُ يقولُ غنَّىٰ الـ ... ـمُنَعَّمُ والشجيُّ يقولُ ناحا
وإنْ برقٌ أنارَ يقولُ هذا افْـ ... ـترارٌ إنْ يقُلْ ذاكَ اقتداحا
وقَطْرُ المزنِ شبّهه دموعًا ... حليفُ شجىً ومُنْتجِعٌ سَماحا
وقالَ الشهبُ حائرةٌ أُناسٌ ... وقالَ الآخرونَ مضتْ جِماحا
وجمعُ الفرقدينِ يقولُ وصلٌ ... كما قدْ قيلَ للشكوىٰ استراحا
وقال الفجرُ قاطعُ لذةٍ مَن ... لها ومسهَّدٌ فرَجٌ ألاحا
وقيلَ الغصنُ لما مالَ قدٌّ ... تثنّىٰ أنْ يقالَ حكىٰ النِّياحا
وقضّىٰ الصُّبحَ والآصالَ نوحًا ... فتىً، وفتىٰ غَبوقًا واصطِباحا
وميزانُ الزمانِ بكفَّتَيْهِ ... ترىٰ جِدَّ العجائبِ والمزاحا
يقرِّبُ هازلًا ويزيحُ جِدًّا ... وكمْ عكَسَ المقرَّبَ والمزاحا
وكمْ يأسوا بوزنٍ راجحٍ كيْ ... يوفِّي مَن يَزينُ لهُ جِراحا
وكمْ دارَ الزمانُ فراحَ يسْقي ... بكاسَيهِ الورىٰ صابًا وراحا
وكمْ أعطىٰ فتىً مِنْ بعدِ سَلبٍ ... وكمْ سلَبَ العطيةَ إذْ أتاحا
وكمْ سهمٍ يريشُ وربَّ طيرٍ ... لهُ قدْ باتَ يسلبهُ الجَناحا
وكمْ رقَّىٰ إلىٰ العلياءِ نذْبًا ... وآخرَ مِنْ شواهقِها أطاحا
وكمْ قد أخرسَ المنطيقَ يومًا ... وأعطىٰ الخُرسَ ألسنةً فِصاحا

وكَـمْ مِـن حكمـةٍ خَفِيـتْ علينـا ... وأخـرىٰ وجهُهـا الوضّـاحُ لاحـا
وكَـمْ أمـرٍ نشـاهدهُ فسـادًا ... وذاكَ فسـادهُ كـانَ الصّـلاحا
وكَـمْ ضـاقَ الفتـىٰ بالخطـبِ ذرعًـا ... وطـيُّ مَضـيقِه لقـيَ الفِسـاحا

فلو لم يكن له إلا هذه القصيدة بل لو لم يكن له إلا بعض أبياتِها لكان ذلك مُوجبًا لعلو طبقته».

متعة القراءة في الأسفار!

(٥٣٣): «محمد بن يعقوب... المجد أبو طاهر الفيروز آبادي الشِّيْرازي، اللغوي الشافعي الإمام الكبير الماهر في اللغة وغيرها من الفنون...

اقتنىٰ من ذلك كُتبًا نفيسة حتىٰ قال: إنه اشترىٰ منها بخمسينَ ألفَ مثقالٍ من الذهب، وكان لا يسافر إلا ومعه منها عدةُ أحمالٍ، ويخرج أكثرها في كل منزل فينظر فيها ثم يعيدها».

نموذج فريد من تعظيم السلاطين قدر علماء الدين!

(٥٣٣): «محمد بن يعقوب المجد أبو طاهر الفيروز آبادي...

فلما وصل هذا إلىٰ السلطان كَتَبَ في طُرَّةِ الكتاب ما مثاله: صدر الجمال المصري علىٰ لساني ما يحققه لك شِفاهًا، إن هذا شيءٌ لا ينطِق به لساني ولا يجري به قلمي، فلقد كانت اليمن عمياءَ فاستنارت فكيف يمكن أن نتقدم وأن تعلم أن الله قد أحيىٰ بك ما كان ميتًا من العلم، فبالله عليك إلا ما وهبتَ له بقية

هذا العمر، والله يا مجد الدين يمينًا بارّةً إني أرىٰ فراق الدنيا ونعيمها ولا فراقك أنت اليمن وأهله. انتهىٰ

وفي هذا الكلام عبرة للمعتبرين من أفاضل السلاطين بتعظيم قدر علماء الدين».

العناية بأذكياء الطلبة!

(٥٣٦): «محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الغَرْناطي أثير الدين أبو حيان الأندلسي...

وكان له إقبالٌ علىٰ أذكياء الطلبة يعظمُهم وينوهُ بقدرهم».

حقيقة نسبة الظاهري إلى ظاهر الشرع لا إلى داود الظاهري!

(٥٣٦): «محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الغَرْناطي أثير الدين أبو حيان الأندلسي...

وكان ظاهريًّا وبعد ذلك انتمىٰ إلىٰ الشافعي، وكان أبو البقاء يقول: إنه لم يزل ظاهريًّا.

قال ابن حجر: كان أبو حيان يقول محالٌ أن يرجع عن مذهب الظاهر من علِق بذهنه. انتهىٰ

ولقد صدق في مقاله؛ فمذهب الظاهر هو أولُ الفكر آخرُ العمل عند من مُنح الإنصاف ولم يَرِدْ علىٰ فطرته ما يغيرُها عن أصلها، وليس وهو مذهب داود الظاهري وأتباعه فقط بل هو مذهب أكابر العلماء المتقيدين بنصوص الشرع من عصر الصحابة إلىٰ الآن، وداود واحد منهم، وإنما اشتهر عنه الجمود في مسائل



وقف فيها علىٰ الظاهر حيث لا ينبغي الوقوف وأهمل من أنواع القياس ما لا ينبغي لمنْصفٍ إهمالُه، وبالجملة فمذهب الظاهر هو العمل بظاهر الكتاب والسنة بجميع الدلالات وطرح التعويل علىٰ محض الرأي الذي لا يرجع إليهما بوجهٍ من وجوه الدلالة، وأنت إذا أمعنتَ النظر في مقالات أكابر المجتهدين المشتغلين بالأدلة وجدتَها من مذهب الظاهر بعينه، بل إذا رُزقت الإنصاف وعرفت العلوم الاجتهادية كما ينبغي ونظرت في علوم الكتاب والسنة حق النظر كنت ظاهريًّا أي: عاملًا بظاهر الشرع منسوبًا إليه لا إلىٰ داود الظاهري، فإن نسبتك ونسبته إلىٰ الظاهر متفقة، وهذه النسبة هي مساوية للنسبة إلىٰ الإيمان والإسلام وإلىٰ خاتم الرسل عليه أفضل الصلوات التسليم».

الناظر في السحاب تخيل ما أراد!

(٥٣٨): «محمود بن أحمد بن حسن بن إسماعيل مظفر الدين العيني الأصل القاهري الحنفي...

قال السخاوي: إنه سمعه يحكي أنه رأىٰ وهو صبي في يوم ذي غيم رجلًا يمشي في الغمام لا يشك في ذلك ولا يَتَماریٰ. انتهىٰ

ويمكن أن يكون رأىٰ قطعة من قطع السحاب متشكلة بشكل الإنسان، **فإن الناظر في أطباق السحاب إذا تخيّل في شيءٍ منها أنه علىٰ صورة حيوان أو شيء من الجمادات خُيِّل إليه ذلك إذا أدام النظر إليها**؛ ولعل سبب ذلك كونُها متحركةً دائمًا

ولطافة الهواء، وكان للحاسة المخيلة فيما كان كذلك اختراعًا يخالف ما جرت به عادتُها من عدم تخييلِ ما يخالفُ المحسوس بحاسة البصر عند المشاهدة».

سَلَف الزركلي في إهمال ملوك الروم وعلمائها!

(٥٤٨): «مراد خان بن محمد خان بن بايزيد أورخان بن عثمان سلطان الروم...

وقد أهمل الحافظ ابن حجر ذكر ملوك الروم في «الدرر الكامنة في أهل المئة الثامنة» فلم يذكر من كان فيها منهم، وكذلك السخاوي أهمل بعضًا ممن كان منهم في المئة التاسعة وذكر بعضًا، وهذا عجيب! فإنَّهما يترجمان لجماعة من أهل سائر الديار هم معدودون من أحقر مماليك سلاطين الروم مع أنَّهما يُترجمان لكثير من صغار الملوك والأمراء الكائنين بالأندلس واليمن والهند وسائر الديار، وهكذا أهملَا غالب علماء الروم ولم يذكُرا إلا شيئًا يسيرًا منهم مع أنَّهما يترجمان لمن هو أبعد منهم دارًا وأحقر قدرًا، فالله أعلم بالسبب المقتضي لذلك، وقد ذكرنا في هذا الكتاب كثيرًا ممن أهمَلَاه».

حقيقة المودة!

(٥٦٩): «هاشم بن يحيىٰ بن أحمد الشَّامي الصنْعاني... أحد العلماء المشاهير والأدباء المجيدين...

وما أحسنَ قولَه من أبيات:

وإذا القلبُ علىٰ الحبِّ انطوىٰ فاشتراطُ القربِ واللقيا غريبْ



تصرفات النساء في البيوع محل نظر!

(٥٦٩): في ترجمة هاشم بن يحيىٰ بن أحمد الشَّامي الصنْعاني:

«إقرارات النساء لقرابتهنَّ وتمليكهنَّ لهم وإباحتهنَّ ونحو ذلك لا يصح عنده لضعف إدراكهنَّ وعدم خبرتِهنَّ، وحُكىٰ عنه أنه وصل إليه بعض أهل صنعاء بقريبةٍ له وقد كتبَ مرقومًا تضمن أنَّها ملَّكتهُ أموالًا وجاء بجماعة يعرِّفونَها، فقرأ عليها ذلك المرقوم فأقرتْ به، فقال لها: هل معكِ حلقةٌ في يدك؟ قالت: نعم، قال: أريد أنظر إليها فأعطته حلقةً كانت بأصبعها، فقال لها: وهذه اجعليها من جملة التمليك. فقالت: لا أفعلُ، إنَّها لي، وكرَّرَ ذلك عليها فلم تُسعد، قال: فعلمتُ من ذلك أن **المرأة لا تعُدُّ ما غاب عنها ملكًا لها ثم مزق المكتوب**.

وأقول: لا ريب أن غالب النساء ينخدعنَ ويفعلنَ لا سيما للقرابة كما يريدونه بأدنىٰ ترغيب أو ترهيب خصوصًا المحجَّبات، وقد يوجد فيهن نادرًا من لها من كمال الإدراك ومعرفة التصرفات وحقائق الأمور ما للرجال الكملاء، وقد رأيتُ من ذلك عجائب وغرائب، والذي ينبغي الاعتماد عليه والوقوف عنده هو البحث عن حال المرأة التي وقع منها ذلك؛ فإن كانت ممارسة للتصرفات، ومطلعة علىٰ حقائق الأمور، وفيها من الشدة والرشد ما يذهب معه مظنة التغرير عليها، فتصرفها صحيح كتصرف الرجال، وإن لم يكن كذلك فالحكم باطل؛ لأن وصاياها التي لا تتعلق بقربة يخصها من حج أو صدقة أو كفارة هو الواجب، وكذلك تخصيصها لبعض القرابة دون بعض بنذر أو هبة أو تمليك أو إقرار يظهر فيه التوليج، وأما تصرفاتُها بالبيع إلىٰ الغير والمعاوضة فالظاهر الصحة، وإذا

ادعت الغبن كانت دعواها مقبولةً وإن طابقت الواقع، ولا يحل دفعها بمجرد كونِها مكلفةً متوليةً للبيع، ولا غبن علىٰ مكلف؛ فإنَّها بمن ليس بمكلف أشبه إلا في النادر».

مِن رجال الدهر!

(٥٧٩): «يحيىٰ بن صالح بن يحيىٰ الشَّجري ثم الصنْعاني المعروف بالسَّحولي...

واتصل بالإمام المنصور بالله الحسين بن القاسم فولّاه القضاء فباشر بصرامة وشهامة وفطانة وهو دون العشرين، ففاق علىٰ المباشرين للقضاء وتقدم عليهم... وبَهر الناس بحسن تصرفه وجودة ذكائه، وحفظه لقضايا الشِّجَار، واستحضاره لما تقدم عهده منها...

وصار إليه المرجع من جميع قضاة الديار اليمانية فباشر ذلك بحُرمة وافرةٍ ومهابة زائدةٍ وفخامة عظيمةٍ، وصار المتصدر في الديوان وليس لأحد من القضاة معه كلام، بل ما أبرمه لا يطمع أحد في نقضه، وما أبطله لا يقدر غيره علىٰ تصحيحه، وكان الخليفة -حفظه الله- يشاوره فيما يعرض من الأمور المهمة الخاصة بأمور الخلافة، بل كان الوزراء جميعًا يترددون إليه ويعملون بما يرشدهم إليه.

وبالجملة فكان صدرًا من الصدور متأهلًا للرياسة ذا دراية بالأمور قد حنكته التجارب، ومارس جميع الأمور المتعلقة بالمملكة، وعرف أحوال الناس وأحاط بجميع الأمور العرفية، مع فطنةٍ عظيمةٍ، وذكاوةٍ مفرطةٍ، وحافظةٍ باهرةٍ، حتىٰ



اشتهر في الناس بأنه إذا ذهب سجل من أسجال الخصومات علىٰ رجل متمسك به وجاء إليه بعد سنين كتبه بلفظه لا من ديوانٍ يجمعُ فيه ما يتفق من ذلك بل من حفظه، وهذا شيء يتقاصر عنه غالب القُدَرِ البشرية، وكان لعظمته في الصدور وجلالته عند الجمهور بمحل يقصر عنه الوصف، بل كان يقال في حياته: إنه إذا مات اختل نظام المملكة فضلًا عن نظام القضاء، واستمر علىٰ ذلك إلىٰ أن مات، وكان له اطلاع تامٌّ علىٰ كتب الأئمة وسائر علماء الزيدية وشغلة عظيمة بذلك، وكذلك بغيرها فإنه كان يقرأ عليه جماعة من علماء صنعاء في «صحيح مسلم»، وفيه من سعة الصدر وحسن الخلق وكمال السياسة وجودة الرأي ما لم يسمع بمثله في أهل العصر، **والحاصل أنه من رجال الدهر**: حزمًا وعزمًا، وإقدامًا وإحجامًا، ودهاءً، وتوددًا، وخبرةً، ورياسةً، وسياسةً، وجلالةً، ومهابةً، وفصاحةً، ورجاحةً، وشهامةً».

ثناء الشوكاني على أخيه يحيى!

(٥٨١): «يحيىٰ بن علي بن محمد بن عبد الله الشَّوكاني الصنْعاني...

وله عناية كاملة بِهذا الشأن، ورغبة ونشاط وإقبال علىٰ الطاعة، ورصانة وحفظ اللسان عن الفلتات التي لا يخلو عنها غالب أمثاله، ونجابة كاملة وذهن وقّاد وفكر إلىٰ إدراك الحقائق مُنقاد، وحسن سمت وقُنوع وعفاف ومحاسن أوصاف، فتح الله عليه بالمعارف وجعله من العلماء العاملين...

وهو -كثّر الله فوائده، ومتّع بحياته- جيد النظم إلىٰ الغاية القصوىٰ، وله من ذلك قصائد فرائد، **وبالجملة فهو حسنة من حسنات الزمن، وفرد من أفراد قطر اليمن**».

احرص على سلامة غطاء الرأس!

(٥٨٥): «يحيىٰ بن محمد بن عبد الله بن الحسين ابن الإمام القاسم ابن محمد الصنْعاني...

وكان غالب اشتغاله بالطب وصار المعوَّل عليه في صنعاء في مداواة المرضىٰ، وفيه بركة ظاهرة قل أن يداوي مريضًا فلا يشفىٰ، ولم يكن ليأخذ علىٰ ذلك أجرًا بل قد يسمح بأدوية لها قيمة ومقدار لكثير من الفقراء، وله ماجَريات في العلاجات يتواصفها الناس، فمنها ما أخبرني به بعض الثقات أن رجلًا حصل معه مرض وورمتْ عضداه حتىٰ صارتا في العظم والصلابة بحيث إذا غمزتا بالإصبع غمزًا شديدًا لا تدخل فيهما ولا يظهر لذلك أثر، فذهب المخبر لي إلىٰ صاحب الترجمة ووصف له ذلك فقال هذا المرض سببه أنه وضع قَلَنْسوته التي تباشر رأسه وتتلوث بالعرق فلدغتها عقرب فصار فيها شيء من السم ثم وضع بعد ذلك القَلَنْسوة علىٰ رأسه وعرِق فتنزل ذلك في مسام الشعر واحتقن بالعضدين فهو لا شك ميت، فكان الأمر كما ذكره من موت ذلك المريض».



الخاتمة!

هذا ما فتح الله تعالىٰ به من فوائد كتاب: «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع».

رحم الله الإمام الشوكاني وجزاه خير الجزاء وأوفاه علىٰ ما أودعه من فوائد، وضمَّنه من فرائد.. مكلَّلة بحسن الظن، وسلامة الصدر، وطهارة القلم، وعفة اللسان، وسمو النفس.

ورحم الله الإمام الشوكاني نَجْمَ مدرسة الاجتهاد والتحرر في القطر اليماني، وجزاه الله عنا وعن العلم خير الجزاء وأوفاه، وجمعنا الله به في جناب النعيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وفرغَ من تبييضه

أحمدُ بنُ غانمٍ الأسديُّ

بمحروسِ مدينةِ صنعاءَ

ليلة الأربعاء لتسعٍ خلون من شهر ربيعٍ الآخِر

عامَ خمسة وأربعين وأربع مئة وألف

من هجرة رسول الله الأعظم ﷺ

(٩/ ٤/ ١٤٤٥).



فهرس المُنتخبات




قريبًا -إن شاء الله تعالى-:
الجواهر المتناثرة
في
الأحاديث المتواترة

